بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تثوير باب التّشبيه

مِن رِسالة النُّكت في إعجاز القرآن للرّمانيّ

بقلم محمود توفيق محمد سعد

أما قبل

(توطئة في التشبيه)

لَيْس من ريبٍ في أنَّ التّشبيه في البيان البليغِ هو من قَبيل "القياس": قياس مجهولٍ (المشبّه) بمعلوم (المُشبه به) في معنى (الصّفة: وجه الشّبه) إلّا أنَّ القياس يقوم على المقايسةِ العقليّةِ بيْن طرفيْه، بيْنا التّشبِيه يقومُ على المُناظرة الحِسيّة أوالعَقليّة أوالتّخيليّة أوْ الوَهْمِيّة.

و"التشبيه" سبيلٌ من سُبل الإيضاح لما لَطُف، وكلَّما كان ما يُوضحه "التّشبيه" لطيفًا كلّما كان " التّشبيه" أنفعَ وأمتعَ ، دون التفاتٍ إلى جوهرِ ما يُوضِّحُ به التَّشبيهُ ما خفِي ، فقيمتُه في وظيفته، لا في مادته.

والتَّشبيه بالغُ الأثرِ في تصويرِ المَعنى المَكنون فِي فؤاد المُشبّهِ" الأديب" والشعراءُ إذْ يشبهون الأشياء ،ولا سيّما ما لم يكن مُحسًا ، فإنما هم يقربون إليك صورته القائمة في أفئدتهم وأنفسهم وعقولهم، ولا يصورون ذلك الشَّيْءِ في حقيقتِه ، هو لا يُخاطبك بما هو خارجَه، بل يُخاطبُك بما هو في فؤاده، أمَّا القرآن فهو إذ يُشبّه شيئًا فإنّما يقربه إليك ولا سيما إذا ما كان المُشبَّه من أفق الغيبِ : يصور لك أمور الآخرة ليقربها إليْك لتفهم،وهذا ليس مُنفصلًا عن الحقيقة ، ولكنّ الحقيقة جميعها لا يطيقها عقلك ، وسوف تراها رأي عين يوم القيامة، فأعدَّ لذلك العدّة من الأعمال الصّالحاتِ المصلِحاتِ.

ولمَّا كان "التَّشبيه" معنًى ، كان الإعراب عنه بأداة ، وأمّ الباب في هذا هو حرف " الكاف" وجلّ ما يُعد من أدوات التَّشبيه إنّما يفيده من قبيل تضمينه معنى" الكاف" : ولذا لا يقُدَّر من أدواته إلا " الكاف" في " ما يسمّى بتشبيه المبالغة (التّشبيه البليغ) : (محذوف الوجه والأداة)

والرَّمَّاني في حديثِه عن " التشبيه" ينظرُ إليه سبيلًا من سبلِ " إيصال المعنى إلى القلب" وجعله تاليًا سبيل "الإيجاز" لما أنّ "الإيجاز" أعمُّ حضورًا من " التشبيه" فقد يكون كلامٌ

بليغٌ" وحضور "التشبيه" فيه قليلٌ ، ولكن "الإيجاز" تراه حاضرًا حضورًا ظاهرًا قاهرًا في عُظم الكلام البليغ، وكان حقًّا أن يردف القولَ في "الإيجاز" بالقول في" المجاز" وعمدته " الاستعارة" لكنّه لمَّا كانت" الاستعارة" مبنيّة على" المبالغة في المشابهة " عند البلاغيين كان حسنًا أن يقدّم القول في "التَّشبيه" على القولِ في"الاستعارة" التي هي رأس "المجاز" الّذي هو قرين" الإيجاز" في مستوَى الكلام البليغ ، فـ"الإيجاز" و"المجاز" عمودان رئيسان من أعمدة البيان البليغ .

وفي كلِّ "مجازٍ" "إيجازٌ" كما أنَّ حضور المجاز في الإيجاز كثير، ولا سيما إذا ما التفتنا إلى " المجاز" في مفهومه الأوسع ، حين يحدث الحذف حكمًا في الكلمة المذكورة لم يكن لها مع ذكرِ المحذوف .

فكما قالت العرب البلاغة "الإيجاز " فلا يُدفع أن تقولَ :"البلاغة المجاز" هما معًا" الإيجاز" و" المجاز" شقيقان.

والرُّمانيّ في" التّشبيه" لم يكُ من أوائل من تكلم فيه ، فهذا الاسلوبُ لقي عناية من العقل البلاغيّ العربيّ قبل عصر التّدوين وفي باكر عصر التدوين ، ولعلَّ حديث " المبرد" فيه أقربُ إلى منهج النّظر البلاغيّ، بينا حديث أكثر من سبقوه كان إلى الحديث الأدبيّ أقرب، وهو حديث يعني بإيراد الصور ، مع شذرات من التبيين الفاتح سبل النظر والفهم، وهو منهاج عَلِيّ حين يكون من يُلقَى إليه على قدرٍ من المهارة والدُّربة والقريحة تمكّنه من أنْ يطعم من عمل عقله وذوقه.وذلك منهاج مدرسة«البيان والتبيين»وهي بلاغة الأهمية، وليس بلاغيًّا من لم يكن ذلك الكتاب«البيان والتبيين» خدينه ، فهو لايقل أهمية للبلاغي عن أهمية كتابي عبد القاهر،وكتاب «المطول»للسعد التفتزاني (ت:٧٩٣هـ)

[تعريف التشبيه عند الرّماني]

استهل الرّماني حديثه في التشبيه بتعريفه بأنه : « العقد على أن أحد الشَّيئين يَسدُّ مسدَّ الآخر فِي حِسّ أوْ عقلٍ »

قوله«العقد» يريد به ما يكونُ في تصورِ المُشبِهِ في فؤاده ثم في تصويره

وفي هذا إشارة إلى التمكن في التصور والتصوير. فالعلاقة بين طرفي التشبيه كلما كانت أحكم، وإن كانت لطيفة في فؤادِ المشبّهِ المبدعِ، وفي تصويره : بيانه كان هذا التشبيه أجود عطاءً . وهذا التَّعريف في النظر العجل قد يتراءى أنّه لا يستقيم إلا إذا كان ما بيْن طرفيْه بالغًا حدًا يقاربُ الاتحاد ، فالشَّيْءُ لا يسدُّ مسدَّ الآخر إلا إذا كانت مناطات

التلاقي هي الأغلبُ أوْ كانت نقاط الاختلاف جدّ قليلة أوْ ضعيفة أوْ لا يُلتفتُ إليها في سياقِ القول.

والنظر المتريث الذي هو أليق بشأن الرّماني أنه لا يريد أن يسدَّ مسدَّه في كلّ شيْءٍ، بل في المعنى المسوق له الكلام. فقولك :"محمّدٌ كالأسد" لا يسُدّ محمّدُ مسدّ الأسدِ في كلّ صفةٍ من صفاتِ الأسدِ، فبعضُ صفاته لا تليق ، بل في صفة الشجاعة والجراءة، والإقدام غير هيابٍ ولا متوجسٍ . والرّمَّانيّ يجعل التشبيه عقدًا في الحسّ أو العقل مثل تشبيه محسوس بمحسوس، والعقل تشبيه معقول بعقول كقولك: "معتقدي كمعتقد رسُول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ " ويقول:« ولا يخلو التَّشبيه من أن يكون في القول أوْ في النّفس.

فأمّا القول فنحو قولك: « زيدٌ شديدٌ كالأسدِ» فـ"الكاف" عقدت المشبه به بالمشبه ، وأمَّا العقد في النفس فالاعتقاد لمعنى هذا القول. »

قوله :« فـ"الكاف" عقدت المشبه به بالمشبه » أي عقدتْ في نفسِ السامِعِ وليس في الحقِيقةِ، فإنَّ المشابة قائمة في الحقيقةِ أو في نفسِ الأديب المبدع ، و"الكاف" لا تخلق مشابهةً غير موجودة في الحقيقةِ أو غير موجودةٍ في نفسِ الأديبِ المبدع، " الكاف" أداة كشفٍ عن المشابهة القائمة بين الطرفين في الحقيقةِ أو في خيالِ الأديبِ المبدع.

ولهذا صح بلاغةً حذف أداة التشبيه حين تكون المشابهة بالغة الجلاء أو يدعى إبلاغ جلائها :(هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ) [البقرة:١٨٧][1]

ولو كانت الأداة هي الخالقة المشابهة لما جاز أن تحذف ؛ لأنّ حذفها يؤدِّي إلى حذف المشابهة بيْن الطرفيْنِ.

---

[1]) في الإعراب عن العلاقة بين الزوجين بالعلاقة بين اللباس واللابس من المعاني الإحسانية في ما يجب أن يكون بين الزوجين من حسين الأخلاقِ ومكارمها: الستر والحفظ وانتفاء الاستغناء عن الآخر،ووجوب الحافظ عليه،ووجوب الاعتناء به ، ووجوب حسن اختيار لباسك .

خذوا زينتكم عند كل مسجد" والأرض كلها للمسْلم مسجد " جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورا" فليس أحد الزوجين بالمستغني عن الآخر ، ولوأن الناس فقهوا (هاتين الجملتين) لكانت علاقتة الأزواج ببعضهما علاقة مثالية ،

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُون * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُون ﴾ [الروم]

وتأمل تقديم قوله﴿ هن لباس لكم﴾ غلى قوله ﴿ وأنتم لباس لهن﴾ فأشار إلى عظيم فضل الأمرأة على زوجها، وأن عليه أن يستحضر هذا في علاقته بها، فبغيرها قد يقعُ في لا يرضي الله تعالى، بينا هي قلما تقع وهي غير ذات زوج في ما لا يرضي الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – لما لها من الحياء والمروءة ما يمنعها من أن تقع في الفاحشة ،والرجل أكثر تعرضًا لذلك من المرأة، ولذا أرى أن المرأة هي أقرب إلى الله تعالى من الرجل إن هي أمسكتْ لسانها، فهو الذي يكبها وجهها في جهنم . يكثرن اللعن ويكفرن العشير.

أداة التَّشبيه لا تخلقُ مشابهة غير موجودةٍ ، بل هي تكشف مشابهةُ بين طرفي التشبيه هي قائمة في الحقيقة أو في وعي الأديبِ المبدع.

" الكاف" أوصل إلى قلب السمع أن زيدًا والأسد معقودان في شيءٍ هو الشدة، والشجاعة .وعلى ذلك يتصور المتلقي حال "زيد" على مقدار عرفانه بِحال" الأسد" في الشدة، فصورة الشدّة في "زيد" تتنوع بتنوع مقدار عرفان السامعِ بشدةِ الأسد.

ولذا كان شرطًا أن يكونَ المشبه به غير مجهولة فيه الصفة (وجه الشّبه) التي هي مناط العقد بيْنه وبيْن المُشبَّه.

ولذا تساءل من لم يتبصر عن التّشبيه في قولِ الله تعالى ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات](٢)

---

٢) يقولُ أبو زكريا الفراء (٢٠٧هـ) في معاني القرآن في تأويل الآية:« وقوله: ﴿ كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ ﴾ فإن فِيهِ فِي العربية ثلاثة أوجه.

أحدها أن تشبه طَلْعها فِي قبحه برءوس الشياطين لأنها موصوفة بالقبح، وإن كانت لا تُرى. وأنت قائل للرجل: كأنه شيطان إِذَا استقبحته. والآخر أن العرب تسمّي بعض الحيّات شيطانًا. وهو حَيّة ذو عرف «٤» .

قَالَ الشاعر، وهو يذم امرأة لَهُ:

عَنْجَردٌ تَحْلِفُ حِينَ أَحْلِفُ كَمِثْلِ شَيْطانِ الحَماطِ أَعْرَفُ

[امْرَأَة عَنْجَرِد: خبيثة سيّئة الخُلُق . و الحَماطُ بلغَة هُذَيل: شجَرٌ عِظامٌ تنْبت فِي بِلَادهمْ تألفُها الحيَّاتُ.]

ويُقَال: إنه نبت قبيح يسمى برءوس الشياطين.

والأوجه الثلاثة يذهب إلى معنى واحد فِي القبح ».

يقول أبو جعفر الطبري (ت:٣١٠هـ) في تأويل الآية :

« فإن قال قائل: وما وجه تشبيه طلع هذه الشجرة برءوس الشياطين في القبح، ولا علم عندنا بمبلغ قبح رءوس الشياطين، وإنما يمثَّل الشَّيْء بالشَّيْء تعريفا من المُمَثّل له قُرب اشتباه الممثَّل أحدهما بصاحبه مع معرفة المُمَثَّل له الشيئين كليهما، أو أحدهما .

ومعلوم أنّ الذين خوطبوا بهذه الآية من المشركين، لم يكونوا عارفين شَجَرة الزقوم، ولا برءوس الشياطين، ولا كانوا رأوهما، ولا واحدا منهما؟.

قيل له: أمّا شجرة الزقوم فقد وصفها الله تعالى ذكره لهم وبينها حتى عرفوها ما هي وما صفتها، فقال لهم: ﴿ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ فلم يتركهم في عَماء منها.

وأما في تمثيله طلعها برءوس الشياطين، فأقول لكل منها وجه مفهوم:

أحدها أن يكون مثل ذلك برءوس الشياطين على نحو ما قد جرى به استعمال المخاطبين بالآية بينهم وذلك أن استعمال الناس قد جرى بينهم في مبالغتهم إذا أراد أحدهم المبالغة في تقبيح الشيء، قال: كأنه شيطان، فذلك أحد الأقوال.

والثاني أن يكون مثل برأس حية معروفة عند العرب تسمى شيطانا، وهي حية لها عرف فيما ذكر قبيح الوجه والمنظر، وإياه عنى الراجز بقوله : عَنْجَردٌ تَحْلِفُ حِينَ أحْلِفُ ... كمِثْلِ شَيْطَانِ الحَماطِ أعْرَفُ

ويروى عُجَيِّزٌ.

وقول الرّماني « وأمَّا العقد في النفس فالاعتقاد لمعنى هذا القول. » يشيرُ به إلى أنَّ الذِي هو إلينا - بلاغيين - ما كان في القول أمّا ما كان في النفسِ فذلك أمرٌ راجلٌ إلى المشبهِ وخالقه - سُبْحَّانَهُ وَتَعَالَى.

يبين الرماني التشبيه الحسيّ والنفسي بمثال توضيحي: « وأمّا التشبيه الحسي فَكَـ"ماءين وذهبين" يَقُوم أحدهما مقام الآخر ونحوه .

وأمّا التشبيه النّفسيّ ، فنحو تشبيه "قوة زيد بقوة عمرو" ، فالقوة لا تشاهد ولكنّها تُعلم سادّة مسد أخرى فتشبه.

****

[تَقسيم التشبيه من حيثُ الاتفاق والاختلاف]

التقسيم الأول كان تقسيمًا من حيثُ نوع الطرفين : الحسية والعقلية. وهذا تقسيم من حيُث مستوى الاتفاق والاختلاف بين الطرفين:

« والتشبيه على وجهين:

- تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما
- وتشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما مشترك بينهما

فالأول كتشبيه الجوهر بالجوهر وتشبيه السواد بالسواد

والثاني كتشبيهِ الشّدة بالموت والبيان بالسحر الحلال. »

جَلِيٌّ لا يَحفَى أنَّ الأوَّل: « تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما» ليس ممّا يُعنى به العقل البلاغيّ فهو ممَّا يعرف بتشبيه حقيقة بحقيقة ، فليس فيه مجالٌ للتخيّل والتّصوّر، فذلك يكاد يتساوى في تلقيه النّاس، والدرسُ البلاغيّ إنّما يُعنى بما كان للمتكلم فيه ثلاثة أشياء :

- «اختيارٌ»
- و«صنعةٌ»
- و«استدراك جمال أي تحصيل جمال»([٣])

والثالث: أن يكون مثل نبت معروف برءوس الشياطين ذُكِر أنه قبيح الرأس ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره: فإن هؤلاء المشركين الذين جعل الله هذه الشجرة لهم فتنة، لآكلون من هذه الشجرة التي هي شجرة الزقوم، فمالئون من زقومها بطونهم.» (أهـ)

[٣]) يقول عبد القاهر:« لا فضيلةَ حتى تَرى في الأمرِ مَصْنعاً، وحتى تَجدَ إِلى التخيُّر سبيلاً، وحتى تكونَ قد استدركْتَ صَواباً.»ينظر دلائل الإعجاز(ص:٩٨ فقرة:٨٥)

وهذا - أيْضًا - هو ما يعمل فيه العقلُ البلاغي : يَنْظرُ في منهاج البليغ في الاختيار من البدائل ، ولا اختيار في المتطابقات، ثم ما يجريه البليغ من الصَّنعة الفنية في ما اختاره هذان : "الاختيار" و"الصّنعة " إنّما يكونان من أجلِ استدراك وتحصيلِ جمالٍ ،لا تحصيل صحة لسانيةٍ " نحوية"

النوع الثاني :« تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما مشترك بينهما» نحو« تشبيه الشّدة بالموت والبيان بالسحر الحلال.» وهذا ممَّا يتفاضل الناسُ في تصوره ، فعلى قدْرِ علمِك بالموت يكون علمُك بما شبه به «الشّدة» وعلى قدر علمِك بالسّحر الحلال يكون علمُك بما شبه به «البَيان» ولا يكون اثنان في العلم بكلٍّ سواء .

وهذا النوعُ الثّاني مناط عناية العقلِ البلاغيّ ، ومن ثَمَّ بسط الرّمانيّ فيه القول تفصِيلًا وتحليلًا ، فكان حفِيًّا به ، ممّا جعله مرجعًا في بابِ" التشبيه" لمن جاء بعده من البلاغيين

*****

[وظيفةُ التَّشبيهِ عند الرمانيّ]

مِن فرائضِ العين اللازمة اللازبة على كلِّ بلاغيٍّ أن يُعنى ببيان وظِيفةِ كلِّ أسلوبٍ ، فتنوّعُ الأساليب التي يُمكن أن يعبّر بها عَن المعنى"الغرض" الواحدِ إنّما مردُّه إلى تَنوّعِ وظائفِ الأساليبِ ، فليست جميعًا تؤدِّي وظيفةً واحدةً، وقد تكونُ وظيفةٌ لها عدّةُ أساليبَ، كالتّوكيد إلّا أن تنوّعَ مستوياتِ التّوكيد ومقتضِياتِه ليست سواءً ممّا يجعلُ لكلِّ مُستوًى ومقتضٍ أسلوبًا.

وحسْنُ فقِه البليغِ وظائفَ الأساليبِ مُعِينٌ علَى حُسنِ تحقِيقِ «البلاغة الإفهاميّة» .

وحسنُ فقِه البلاغِيّ وظائفَ الأساليبِ مُعِينٌ على حُسْنِ تَحقِيقِ «البلاغَةِ الْفَهْمِيّةِ»

تتمثل وظيفة التشبيه البليغ أي المطابق لمقتَضى الحال عند الرماني في أنّها « إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف»(٤)

---

٤) لا يريد الرماني بالتشبيه البليغ ما يريده المتأخرون من مدرسة " المفتاح" :

هم يريدون به ما كان محذوف الوجهِ والأداة ، وهو يريد ما كان مطابقًا لمقضى الحال، هم ينظرون إلى المبالغة ، وهو ينظر إلى المطابقة، فاختلفت جهات النظر.

ولذا رأينا نقاشًا لدي البلاغيين المتأخرين في موقع التشبيه المحذوف الوجه والأداة من «الاستعارة» فمن ذاهب إلى أنَّ المبالغة التي فيه تقربه إلى الاستعارة ، ومن ذاهب إلى أن وجود المشبه يبعده عن الاستعارة ، فكان تعارضٌ بين مفاد حذف الأداة والوجه ، ومفاد ذكر المشبه ، وذكر المشبه أقوى في إبعاد هذا التشبيه من الاستعارة، من تقريب حذف الوجهِ والأداة هذا التشبيه إلى الاستعارة. وقد كتبأستاذنا " عبد العظيم المطعني" - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - بحثا عنوانه «التشبيه البليغ هل يرقَى

فهو أسلوب تبيين يشترط فيه أمران يميزانه عن مسالك التبيين الأُخر:
(الأوّل) أنّ يكون بأداة تشبيه او ما ضمن معنى التشبيه ملفوظًا أو ملحوظًا .
(الآخر) «حسن التأليف» وليس صحة التاليف ، فالصحة مشغلة العقل اللغوي والنّحويّ ،و«الحُسْنُ» مشغلة العقلِ البلاغِيّ.
وكلمة «الحسن» هنا لا يراد حُسن الشْيْءِ في ذانه فحسبُ ، بل يراد الحُسن في ذاته ، والإحسان في إفادته ، وذلك بـأُنْسِ سياقِهِ بِه فهو بهذا لا يَمَلّ إحسانًا إليك بالعطايا المتجدّدة إذا أنت متبصرًا لا تملّ إحسان تدبّره . ﴿هلْ جزاءُ الإحسانِ إلّا الإحْسانُ﴾، ﴿إن أحْسَنْتُمْ أَحسَنْتُم لأنفُسِكم ﴾.
و«حسن التأليف» لا يُحصر هنا في جملة " صورة"التشبيه بل هو قائمٌ أيضًا في سياقه: السباق واللحاق، لأنه عنصر من عناصر بناء صورة المعنى على امتداده. فوجب النظر إلى حسن التأليف على مستوى سياق القول ، وإن امتد .
« وهذا الباب – كما يقُول الرّمانيّ - يتفاضَلُ فيه الشُّعراء وتظهر فيه بلاغة البلغاء ، وذلك أنَّه يكسِب الكلامَ بيَانا عجيبا»
تصريحه بالشّعراء ليس من قبيلِ التّخصيص الثبوتي الحصري :«مفهوم المخالفة : لحن الخطاب» فلا يدخل فيه سائر المتكلمين ، كلا إنما هو من التخصيص الإثباتي : التَّخصيص بالذكر، و إنّما اصفى بالذكر أعلى طبقاتهم : "الشعراء" ، فالتفاضل بينهم إنّما يكون بالغَ اللطفِ ، ولا يشعر به إلا من كان لقنًا ذا ذوقٍ لطيفٍ طريفٍ ، فكلما كانت المزية في الشعر ألطف كانت المفاضلة أعلَى .
وقوله:«وتظهر فيه بلاغة البلغاء» إشارة إلى ما هو أدنى لطفا ممَّا يكونُ في الشعرِ ، فالتفاضلُ في الشّعر ألطف من التفاضل في غيره من البيان البشري . فإذا جئنا إلى بيان الوحي المعجز قرآنًا وسنةً فذلك أمرٌ أخر. لا يقُارن به شيءٌ آخرُ في هذا .(٥)

إلى درجةِ المجاز» نشره في عام ١٤٠٠هـ_ دار الأنصار – القاهرة) أنتهى فيه إلى «لأنّ"التشبيه البليغ "بكلّ صورِه لايرقَى إلى درجةِ المجاز فضلًا عن يكونُ فيه استعارة ...." (ص:٩٠) »
والذي أذهبُ إليْهِ أن ذكر المشبه يبعد التشبيه من الاستعارة من حيُث الوظيفة، : الاستعارة أداة خلقٍ ، وليست أداة تبيين وتوضيح كالتشبيه في كل صوره .ولذا تتجاوز " المبالغة في المشابهة " التي تقوم عليْها "الاستعارة" طور التبيين والكشف والمقايسة ، إلى طور إيجاد وخلق عالم جديد ليس له وجدود في غير صورة الاستعارة التي هي معربة عما هو في وعي الأديبِ المبدع .
٥) من النصح لكتابِ اللهِ تعالى ألا تتنزل عليْهِ كلَّ قواعد التشبيه والاستعارة التي جاء بها البلاغيون من البيان الإبداعي البشري. ، فثَم أمورُ لا يستقيم القول بها في تشبيهاتِ القرآن واستعاراته ومجازاته.

وفي قوله « إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التّشبيه» أعربَ باسم التفضيل إشارة إلى فاعلية الأداة في تحقيق الإخراج ، وهو بذلك يبينُ لنا مصدر بلاغة التشبيه المتحققة بالمطابقة لمقتضى الحال ،وما يسديه إلى المتلقي : سامعًا أو قارئًا: إحالة ما هو بالغ الغموضِ إلى ما هو بالغ الظهور لتأنس به النفس ، فإنها لا تأنس بما كان غامضًا ،وأنس النفسِ بالمعنى إنّما يجعله مقتدرًا على أن يفعل فيها وبها ما يراد أن تفعله . فما كان المتكلم الحكيم إلا ساعيًا إلى أن يحدث تأثيرًا في نفسِ مخاطبه، ويسوقه به إلى غاية يرى أهمية سوقِه إليْها، فللكلام رسالة، وإلا كان قولًا فارغًا، وما سُمِّيَ القولُ " كلامًا" إلَّا من " الْكَلم: الجرح"

وجرح السيف يبرأ عن قريب ⁂ ويعيا البرء من جرح اللسان
وجـرح السيـف تدمله فيـبرا ⁂ ويبقى الدهر ما جـرح اللسـان

فلدينا ثلاثة مصطلحات:« قول »،«بيان»،«كلام»:

القول أعم: كلّ ما ينطق به لسانك قولٌ

والبيانُ قولٌ أبان عمّا في فؤادك إن لم يُحدث في مخاطبك أثرًا

والكلام قول أبان عما هو مكنونٌ في فؤادك ، وأثّر في مخاطبك .

البعد التأثيري ملحوظ في مصطلح" الكلام"

والبعد التبييني ملحوظٌ في مصطلح " البيان"

فكلّ كلامٍ بيانٌ، وليس كلّ بيانٍ كلامًا، وكلّ بيانٍ قولٌ ، وليس كلُّ قولٍ بيانًا.

⁂⁂⁂⁂⁂

[تفاوت التشبيه في البلاغة التبيينية التأثيرية]

يقول الرُّمانيّ : وهو - أي التشبيهِ - على طبقات في الحُسن ، كما بيَّنا. فبلاغة التَّشبيه الجمعُ بيْن شيئين بمعنًى يجمعهُما يُكسبُ بيانًا فيهما" هذا التَّفاوت مرجعه إلى مستوى مطابقة الكلام لمقتضَى الحَال ، وليس لمواد التشبيه، ذلك أنَّ موادَّ التشبيهِ ليستْ من

كلُّ ما لا يَليق بكمال جلال الألوهية، وكمال جمالِ الربوبية، لا يستقيم الأخذ به في تلقي المعنى القرآني . وهذا يحتاجُ إلى مزيد اعتصام بعقيدة الإسلام كما جاءت في القرآن والنسة،وبيان والصحابة،والتابعين لا كما يهرف بها بعض علماء الكلامِ الفلسفيّ . فاحذر أقاويلهم ، فإنهم لا يخاطبونك مسلمًا إنما يُخاطبون من لا يرضى بالقرآن والسنة ثم بالأقول الوثيقة للصحابة. علم الكلام لا يصلح لمخاطبة من كان بالكتابِ والسنة مؤمنا غذا سمعآية أوحديثًا نبويًا قال بلسان حاله ومقاله :سمعنا وأطعنا

صَنعَةِ المُتكلّم بالتّشبيهِ، وكلُّ ما ليْس للمتكلّم فيه اختيارٌ وصنعةٌ يَسْتدرِك بها جمالًا ليس مناط مفاضلةٍ.

وليس مِن شكٍّ في أنَّه إذا ما كان تشبيهان متطابقين فِي مستوَى مطابقةِ مقتضَى الحال ،وكانَت مواد التشبيه في أحدهما أعلى شأنًا في صِناعة الإنسان النبيل كان إلى النفسِ السويّةِ أنسَ ، لا لأمِرٍ متعلقٍ بالصّنعة ، ولكن لأمر متعلقٍ بحاجةِ النَّفسِ إليه .

والرّمانيّ يقسم التشبيه قسمين التشبيه :

= تشبيه بلاغة

= وتشبيه حقيقة

فتشبيه البلاغة كتشبيه أعمال الكفار بالسَّراب.

وتشبيه الحقيقة نحو: هذا دينار كهذا الدينار فخذ أيهما شئت.

تشبيه الحقيقة بالحقيقة ليس للعقل البلاغي فيه مشغلةٌ ، فليس في هذا ما يضيفه المشبه به إلى المشبه كما أنه ليس فيه ما يتفاضل الناس في تلقيه، وما كان كذلك ليس للعقل البلاغي عناية به وأن اعتنت به عقولٌ أخر.

ولو أن الرّماني أعرض عن مثل هذه التقسيمات التي يكون شطرها لا علاقة له بالبلاغة لكان أفضل، ذلك أنَّا في سياق القول في بلاغة البيان القرآني، ولسنا في سياقِ التقسيمات العقلية للقول بليغًا أو صحيحًا غير بليغ. وكأن الصنعة العقلية والمنطقية غلبتْ علَيهِ .

⁂⁂⁂

[أغراض البيان بالتّشبيه]

حديثُ البلاغيين عن أعرض أسلوبٍ ما هو بيانٌ لما يصطفَى فيه الإعرابُ بذلك الأسلوب، فهو نظر في البعد الوظيفي للأسلوب.

وكلّ أسلوبٍ له أبعادٌ كليّةٌ ثَلاثَة:

<u>البعد التركيبيّ]</u> ننظر في منهاج تركيب الأسلوب باعتباره صورة المعنى. وهذا مهم جدًا، وقلما يُعنى طلاب العلم بمدارسة البعد التركيبيّ لأسلوبِ التشبيه، ولا سيما التشبيه المركب الحسيّ والمعنويّ .

وهذا تقصيرٌ في الوفاءِ بحق النظر البلاغيّ، علينا أن نفرق بين حالنا ونحن نُدَرِّس قضايا علم البيان لطلابِ العلم دراسة نظرية تقعيدية، وبين حالنا ونحنُ ندرُسُ القضايا البلاغية في البيان البليغ لاستنباط معانيه الإحسانية، وصورها الدالة عليها، ومنهاج دلالتها على

تلك المعاني ، ومستوياتِ تلك الدلالات، ومقتضِيات ذلك كله ، ثم أثر ذلك كلّه في المعتى المصور ، وأثر ذلك كله في المتلقّي.
تلك هي مناطات النظر البلاغي في أيّ أسلوبٍ بلاغي في بيانٍ بليغ. فاحذر أن تعنى ببعضِ وتتشاغلَ عن بعضٍ .
البعد الدلاليّ] ننظر في مستويات دلالة الأسلوب على المعنى والغرضِ المنصوب له الكلام سواء كان ذلك من حيث الجلاء والخفاء أو الإحكام والاحتمال أو القربِ والبعد أو القطعية والظنية ...)
البعد الوظيفيّ] يدخل فيه مستوى تأثير الأسلوب في المعنى ، وتأثيره في المتلقّي سامعًا أوقارئًا وكل دراسة لأي أسلوب من ألأساليب التركيب أو الدلالة لابُدَّ أن تستوفي النّظر في هذه الأبعاد الثلاثة في أثناء تلقي البيان البليغ سواء كان بيان عليًّا معجزًا: بيان الوحي قُرآنًا وسُنّة ، أو كان بيأنًا عاليًا إبداعًا بشريًا شعرًا أونصرًا أدبيًا أو علميًّا .
والبعد الوظيفي لأسلوب النشبيهِ عند الرُّماني له عدَّة وجوه استظهر منها على الإجمال أربعةٌ وجوه:
= إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة. وهذا نحو تشبيه المعدوم بالغائب
= إخراج ما لم تجربه عادة إلى ما جرت به العادة نحو تشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النوم
= إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة ،نحو: تشبيه إعادة الأجسام بإعادة الكتاب
= إخراج مالا قوة له في الصفة إلى ماله قوة في الصفة،نحو: تشبيه ضياء السراج بضياء النهار.([٦])
وهو بهذا ناظرٌ إلى أنَّ البعدَ الوظيفيّ للتشبيه إنّما هو تقريبُ الأشياءِ غير المدركةَ على الوجهِ الأليقِ بها بمناظرتِها بما هو بالغُ البيان عند المخاطبين بحيثُ يمكنهم العرفان بحالِ ما يجهلون في مِراة ما يعرفون، وهذا ملحظ مهمٌ جدًا في مدارسة الأساليب ؛ لأنّ الغايةَ الرئيسةَ من مدارسة البنية التركيبيّة للأساليب الوعيُ بالقيمة الوظيفيّة لها، فليست قيمةُ الأسلوبِ في تأليفِه ، وإن كان هذا بالغَ الأهمية، بلْ إدرك وظيفة الأسلوب هو الأهمُّ الأعمُّ ، فمدراسةُ البِنية التّركيبية، وطرائقِ دَلالةِ التّركيب على المراد، ومستوياتِ الدلالة ، كلُّ ذلك في خدمةِ العرفان بوظيفة الأساليب ؛ لأنّها هي المَهَمَّة الرئيسة.

[٦]) ليست هذه الوجوه جميعًا من باب إخراج المعنوي إلى الحسي، بل هذا للوجه الأول، وبقية الموجوه تحتمل أن يكون المخرج إليه معنوي(عقلي) إلّا أنّه يفارق المخرج بأنه ممّا جرت به العادة وهو عقلي، ومما يعلم بالبديهة، وهو عقلي أيضًا، ومما كانت فيه الصفة قوية، وهو عقلي أيضًا ، فمن قال إنها جميعا إخراج إلى ما هو حسي لم يُحرر النظر.

ومن أجلِ تعدّد الوظائفِ وتنوعها تنوَّعت الأساليب وتعدَّدت ، بل إنَّ الوَظيفة الواحدةَ لها عدّة صور من الأسلوب الواحد كلُّ صورة تعنى بتفصيلة من البعد الوظيفي لهذا الأسلوب ، وهذا أمرٌ بالغ الأهمية في تحليل الأساليب وتأويلها وتعاليها.

ومن أراد التّفريق بين أسلوب التشبيه والاستعارة ، فالأعلى ألا يكون التّفريق من جهة التَّركيب بل من جهةِ الوظيفة.

وظيفة التّشبيه ليست منها وظيفة الاستعارة بسبيل :

التّشبيه أسلوبُ تبيين وتقريبٍ وكشفٍ وإيضاحِ الخفي في المشبّه

والاستعارة أسلوب إبداع وخلق عالم جديد ليس له وجود خارج الصورة الاستعارية.

ولذا ترى علماء البلاغة الأُوَل، جعلوا رأس" البديع" الاستعارة، كما تراه في كتابِ " البديع" لابن المعتز، وكذلك جعلها عبد القاهر من البديع،والقاضي الجرجاني في" الوساطة" والبديع هنا معناه الإبداع .

والقول بأن الاستعارة مبنية على " المبالغة في المشابهة " لا يعني أبدًا أنّها والتشبيه سواء وظيفيًا

ولو انهم استحضروا هذا ما كان لهم الالتفات إلى التّسؤال : هل التشبيه المحذوف الوجه والأداة من الاستعارة؟

سؤال لم يكن مخرجه ملاحظة البعد الوظيفي، لأن وظيفة هذا التشبيه المخذوف الوجه والأداه إنّما هي تقريبية وتبيينة على سبيل المبالغة لكنها لا ترقي به إلى حَمَى وظيفة الخلق والإبداع وإيجاد عالم جديد لا وجود له إلا في الصورة الاستعارية.

هذا ملحظٌ لا بُدَّ أن يكونَ حاضرًا في وعيك البلاغي، وأنت تمارس تلقي الأساليب البليغة

****

[تحليل الرماني صورًا من التشبيه]

من بعد هذا البيان الإجماليّ عمد الرمانيّ إلى التمثيل والتفصيل والتحليل ،وهو في تخليله كان معنيًا بثلاثة أمور:

البعد الوظيفي : الإخراج من حال خفي على المخاطب إلى حال جليّ عنده واختص منه أربعة وجوه..

ماأجتمع فيه طرفا التشبيه

الغرض المساق له التشبيه .

هذه الثلاثة كان الرماني حريصا على التصريح بها في كل صورة من صور الوجوه الوظيفية الأربعة للتشبيه

تحليل صور من الوجه الأول للتشبيه :إخراج ما لاتقع عليه الحاسة إلى ما تقعُ عليْهِ.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَاب ﴾ [النور:٣٩]

يَعمَدُ الرّمانيّ إلى هذه الآية فيُبين عن نوع التشبيه، ورسالته الوظيفية، فالمشبه «أعمال الّذين كفروا» وهذا ممّا لا تقع عليه الحاسّة وقد جاء الأعراب عنها مجملًا لأن قوله " الذين كفروا" كاشف عن حال هذه الأعمال وشأنها، وما أحدثته من فساد في الحياة الخاصّة والعامة. فأقام المتلقي سامعًا أو قارئًا مقام المستحضر حال هذه الأعمال ، فعليه أن يستحضرَها في وعيه من قبل ِأن ينظر فيما شبهتْ بِه سزاء كانت مما يحسب أنها نفيعة في الدّنيا أو غير نفيعة ، وهذا من محاسن النّظم القرآن يوجز حيثُ يكون الإيجازُ أقدر على بسط المعنى في فؤاد المُتلقي ، فبسطه في فؤاده أنفع له من بسطه في سمعهِ ، وأمكن للمعنى المستنبط المستحضر من أن يُذكر، ويفصل ، فالمعاني التي يستولدها الفؤاد الرشيد السميع البصيرمن العبارة الوجيزةِ ، ويستحضرها قَلَّما تغيب عنه أو يغفلَ عنها ؛ لأنَّها ولائده ، والمرءُ لا يُشغلُ عن ولائده فضلًا عن أن يَعفُل عنها.

والمشبه به «سَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء....» وهذا ممّا تقعُ عليه الحاسة ، فناظرت الآية ما لا يُرَى بما يرى ، فأثمر ذلك بيان بطلان المتوهم مع شدة الحجة إليه وعظيم الفاقة ، فكشف لنا عن مقدار الحسرة التي يكون فيها الذين كفروا.

وهذا الإحساس المُفْعَوْعِمُ بالحسرةِ عند فقدان ما يؤمّل كثيرًا في نفعِه يكاد جُلُّ الناس قد ذاقوا شيئًا منه في أحوالهم ، فكيف إذا كان ذلك في حال لا استدراك فيها. إنّها الحَسرة المطبِقة .

جاءك المشبَّه بِه مفصّلًا ليكونَ في تفصِيله ما يعود بالحُسنَى على تبيين المشبه، وتبيين ما يلتقي فيه الطّرفان،وفي تمكن الغرضُ المسوق له البيان بهذا التّشبيه. ومن السنةِ البيانة في القرآن في أسلوب التشبيه المركب أن يكون المشبه مجملًا ،والمشبه به المعلوم مفصّلًا ، فيفيض تفصيله المعلوم على الإجمال القائم في المشبه، فيتجلّى له المشبه في مراءة المشبّه بِه المعلوم عندك. جعل مدخول "الكاف" عنصرًا من عناصر المشبه به تبنى عَليهِ سائر العناصر، فكأنّه حجر الأساس لهذه الصُّورة :

أدخل "الكاف" على «سراب» وهي كلمةٌ بمجرد أن يلامس صوتها الأذن تفعم الفؤاد بالشّعور بالخيبة العارمة ، ثم يأتيك قوله :"بقيعه" ليصور لك هذا الفراغ الذي لا سبيل للظمآن أن يتوقع أن يجد شيئًا ، ثم يأتي الإعراب بقوله «يحسبه» والسّنة البيانية للقرآن أنّه يعرب بالفعل «حسب» عن الاعتقاد الضالّ، فحيُث وجدتَ الفعل «حسب» فيه فاعلم أنه يحدثك عن اعتقاد ضالٍ، فدل بهذا على أنه قد ضَلَّ فيما اعتقد ، ويزداد شعورك بعظيم أثر الضّلالة في الاعتقاد باصطفاء قوله: «الظمآن» وهو من بلغ به العطشُ مبلغًا لا يطاق، ثم يأتي البيان عن المفاجأة الفاجعة:« حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ» تلك قاصمة الظهر التي ليس من فوقها خيبة أملٍ .

كل هذا أعان على تحقيق غرضِ التشبيه ؛ ليقيمَك في مقام النفور من منهاج أولئك الذين كفروا ، كأعمالهم لن يُفيدوا منها،وإن كانت نافعة لهم في دنياهم، فذلك هو الخسران ، فليس عقيلًا من يجعل كلَّ عمله لدنياه البالغة القصر، ويرغب عمّا هو باقٍ فيه بقاء أبديًا ، ممَّا يهديك إلى ضلالهم العقلي ،ومن كان كذلك ، فليس لمن فيه ذرة من تعقل أن يتخذهم أسوة يجرِي على سننهم. ومن فعل فهو أضل منهم وأخسر، وهذا يصور لك حال قومِك الذين اتخذوا الذين كفروا أسوة وقدوة في جميع أمرهم. (٧)

يقُول :« فهذا بيان قد أخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة »

والرّمانيّ يتخذ منهج الاستبدال، فيقيم في منظور البيان القرآني ما يمكن أن يستقيم عربية ، وينظر الفرق بين الصُّورتيْن ، يقُول: « ولو قيل يحسبه الرائي ماء ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغا ، وأبلغ منه لفظ القرآن »

وهذا منهاج تربوي عليّ ، يجعل القارئ أو السّامع مشاركًا في استبصار ما بين البيانين من مفارقةٍ .

---

٧) حقٌ مبينُ مكينٌ عليْك – طالبَ علمٍ- أن تخادن ما أسداه إلينا شيخنا أبو موسى في مدارسته هذه الآية في كتابه«الإعجاز البلاغي» ،وفي دراسته «أمثال سورة النور»في كتابه «دراسات من البلاغة والشعر» . وناظر التشبيه في هذا الآية بالتشبيه في قول الشاعر

لقد أطمعتني بالوصال تبسما ⁂ وبعد رجائي أعرضت وتولت

كما أبرقت قوما عطاشا غمامة ⁂ فلما رأوها أقشعت وتجلت

وهو يبين عن وجه علة البيان القرآنيّ بأن القرآن أعرب عن الرائي بالظمان، فجعله في حالة خاصة لها عظيم علاقة ببيان ما سيق التشبيه لتقريره ، فليس كلُّ راءٍ للسرابِ يستشعر خيبة الأمل ، فقد لا يكون عطشًا أو يكون معه ماءُ ، أما إن كان ظمآنا لا ماء معه، وقد بلغ به الظمأ مبلغًا ثم يغدو حيث يحسب السرابَ ماءً فإذا ما بلغ من بعد جهدٍ وشديد أمل لا برى شيئًا فإن خيبته تكاد تقتله من قبلِ أن يقتله الظمأ، فخيبة الأمل قد تبلغ بصاحبها مبلغًاأسرع مما يبلغه اشتداد الظمأ .

وقوله :« لأنّ الظمآن أشد حرصا عليه وتعلق قلب به. ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأبد في االنار » يبين به وجه الإعرلب بقوله«الظمآن» لفتأ إلى أهمية مراجعة المعجم الكلمي الذي يتشكل منه طرفا الصورة التشبيية ، فكثيرًا ما يغفل طلاب العلم في مدارسة التشبيه عن مدارسة نظم الصورة ظنًا أن هذا من خصائص علم المعاني ، والتشبيه يدرس في علم البيان الذي يعنى فيه بمدارسة مستوى الدلالة وضوحًا ، وهذه غفلة مهلكة .

النظر البلاغي لا يفصل البتة عن مدارسة نظم صورة المعنى ومدارسة وجه دلالتها على المعنى ومستوى هذه الدلالة ، وما يكون فيها من عوامل تحبير المعنى التَّركيبية والدَّلاليّة التي تسمَّى بالبديع.

وأنت ترَى الرَّمانيّ لا يكتفي بهذا على جلالِه بل يُضيف إلى ذلك أن «تشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التّشبيه ، فكيف إذا تضمّن مع ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة وصحة الدلالة. »

هذه أربعة تزيد التشبيه حُسنًا على حُسنٍ ، فيبين لنا أن حسن التشبيه لا يتوقف على ما بين طرفيه من علاقة وثقى، ومن تمكن المعنى (الصفة: وجه الشبه) في كلّ ، بل يزيده حسنًا ما يكونُ في نظمه ،وعذوبة لفظه ، وكثرة فائدته ،وصحة الدلالة .

هو يهدينا إلى أن مدارستنا الصورة التشبيية يجب ألا تنحصر في العناية ببيان مدى تحقق وجه الشبه في الطرفين، ونوع هذا الوجه، بل علينا أن نجمع إلى تلك العنايةِ العنايةَ بما تركب منه طرفا التشبيه من الكلم ، وما جاء عليْها نظمُها، وما كان لها من عذوبةٍ في النطق، وفي التلقّي ، وما أعان على أن يتحقّق لها اتساع المعنى في فؤاد المتلقي قارئًا أو سامعا وما كان لها من حُسن الدَّلالة وتمامها وتبرجها ، وهو يعبر عن هذه

الثلاثة بالصّحة أي الصّحة في الخلاء من التعقيد ،والصحة في تمام الدلالة ،والصحة في إحكام الدلالة ، فهي صحة جمالية، وليس صحة إعرابية.

******

ويردفُ الصورة الماضية بصورةٍ تشبيهية تضارعها في الغرض، وتَبِينُ عنها في النظم ، وذلك ما تراه في قول الله - عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم:١٨]

هذه الصُّورة التَّشبية كمثل الصّورة التّشبيهيةِ السّابقة في تصوير شأن أعمال الذين كفروا إلَّا أن بيْنهما من التصريف البياني الذي يمنحُ كلَّ صورةٍ خصوصيتَها فِي أن تقومَ في سياقِ سورتِها ، فلا يكونُ سبيلٌ إلى إقامةِ صورةٍ مقامَ الأخرى .

والرُّمانِيُّ لَم يلتفتْ إلى هذه الخصوصيّة ، وهي ذاتُ شأن بالغٍ في إعجاز القرآن ، فالصُور التّعبيريةِ عن غرضٍ واحدٍ وإن تقاربَت ، وكان فيها شيْءٌ من التّصريف البياني أو ما يسمى "المتشابه الكلمي أو النّظمي" فإن سياق كلّ مختلف ، واختلاف السياق وإن كان قد لا يؤثر في أصل المعنى إلَّا أنَّه في المعنى القرآني أو المعنى السياقي لكل صورة يوثّرُ تأثيرًا بالغًا . وهذا وجهٌ عَليّ جليلٌ من وجوه الإعجاز البلاغيّ (٨)

والرُّمانيّ في تبيينه هذه الصّورة لم يزد على أن أشار إلى أنّ « هذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، فقد اجتمع المشبه والمشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات ، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغ »

أبان عن الغرض من التّشبيه :" إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه" : أي إخراجه في نفسِ المتلقي قارئًا وسامعًا وليس إخراجه في ذاته، بل في التلقّي . وتلقي المحسوس أمكنُ في النفس من تلقي غير المحسوس، فدَلَّك على أنَّ المرمَى إنما هو تمكينُ المعنى في النّفس اعتناء به وبمتلقيهِ لِما لِفقهه وحضوره في نفسه من عظيم الفائدة في إقامة مسيرتك على الصراط المستقيم ، وهذا من رحمة الله بعباده ﴿ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥] ﴿ يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ [النساء:٢٨]

---

٨) عُني بِه شيخنا - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - في دارسته "أمثال سورة النور" في كتابِه "دارسة في البلاغةِ والشعر." فحق أن تفيءَ إليْهِ ، فإنك إن فعلت طعمت ما أنت في حاجة كبيرة إليه. فلا تبخل على قلبك ، «كفَى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت» وقلبك أولى من تقوت بالرعاية والحماية.

فكان الإعراب عن المعنى بهذا التشبيه من فيضِ رحمانيته - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فهو جامعٌ بين جلال الألوهية،وجمال الربوبية،وكان الإعراب عن الجلال بسبيل التصريح ،والإعراب عن الجمال بسبيل التضمين، وهما معًا : الجلال والجمال حاضران، وإن تفاوتا ظهورًا ، وهذا شأن السنة البيانية للقرآن . (٩)

وأبان الرُّمانيّ أيضًا عن الصفة الجامعة بين طرفي التشبيه (وجه الشبه) بـأنها «الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات ، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة».

الصفة الجامعة بين طرفي التشبيه مجموعةٌ من ثلاثٍ كلّ واحدة هي كفيلة بتحقيق الحسرة القاتلة: «الهلاك» وهي كلمةٌ دالة على كمال الفناء ، و«عدم الانتفاع» وهذا هو الخسران المبين، فالشأن أنَّ كلَّ ما يمارسه الناسُ إنّما يُمارسونه ليتحقق به الانتفاع لهم عاجلا أو آجلًا ، وليس أشدّ على المرء من أن يبذلَ عُمُرَه وجُهدَه في أمرٍ يفتقِرُ إلى نفعه ، فإذا هو على غير الذِي يأمُلُ ويتطلع إليْه ، و«العجز عن الاستدراك لما فات» وتلك هي القاتلة ، فهلاكُ شيْءٍ يمكن أستدراكه أخفُّ وطأةً منْ هلاك ما لا يُمكن استدركه.فإنه الخسران المبين.

الرّمانيّ يستخلص تلك الصفة المركبة ممّا صُرِّح به في المشبه به، وطوِي ذكره في المشبه بعثًا لك على أن تستخرجه من أعمال الذين كفروا، فتنتظر فيها لترى تحقق عناصر وجه الشبه التي ذكرها « الهلاك»« وعدم الانتفاع»«والعجز عن الاستدراك لما فات »

وهو يعربُ عمَّا يلزم من هذه الثلاث:« وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغ» الحسرة للذين كفروا، والموعظة لغيرهم، فجعل حالهم خسرانًا عليها، ونفعًا لغيرهم، يُخرج الحي من الميت، والنور من الظلمةِ، والهدَى من الضلالة، وفي هذا إنباء لولي الألباب أنّه بمقدورهم أن ينتفعوا بمل شيءٍ إذا ما أعملوا عقولهم، وفكروا وتدبروا واعتبروا، فاعتبروا يا أولى الألباب.

ما سلكه الرّمانيّ حميدٌ يذكر له، ولك أن تنظر في بنية نظم التشبيه ، فإذا نظرت في آية سورة" النور" رأيت أنها جاءت هكذا «الّذين كفروا أعْمالُهم كَسَرابٍ» وآية سورة"ابراهيم" جاءت هكذا ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾

---

٩) في كل آية تامة المعنى تكمن ثلاث معان: "التوحيد"،و"جلال الألوهية وعزتها وسلطانها"،و" جمال الربوبية ورحمتها وإحسانها " فلا تغفلنّ عن استنباط واستطعام هذه الثلاثة من كلِّ آية من آيات الذّكر الحكيم.

فالنظرة العجلى تدرك أنّ هنالك فرقًا في مكونات الصورة ، وفي نظمها ، وهذا لا يكون تفننًا، فليس في القرآن ما يُسمى تفننا جريدًا، فهو عقيم غير نجيب مجيبٍ بما يقتضيه الحال([10])
قوله : ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ مبتدأ لخبر مقدم محذوف: في ما نقصّ عليك مثل الذين كفروا بربهم.
وقوله "أعمالهم " مبتدأ" خبره" كرمادٍ..." وجملة:" أعمالهم كرماد... " بيان للمثل ، فبينهما كمال اتصالٍ تبيينا.
وفي قوله «كفروا بربهم»إشارة إلى عظيم خِسَّتهم ، فليس من شأن الحُرِّ أن يكفر بمن أنعمَ عليه ، فكلُّ نعمةٍ قائمة فيه هي مذكرة بحقّ منعمها عليه ، فحين يشغل بحظّه من النّعمة عن حقّ منعمها عليه بها يكونُ قد بلغ في الخِسَّة مبلغًا عجبًا.
كان يمكن أن يكونَ البيان في غير القرآن : " أعمال الذين كفروا بربهم... " إلا أنّه جعل رأس الأمر كأنه حديثٌ عن الذين كفروا،وليس عنْ أعمالهم، ثم يأتي بقوله :"أعمالهم" ليفتك إلى أن الأمر ليس متعلقًا بذواتهم ، بل بأعمالهم، وفي هذا من التربية أن تكون علاقتك بالأشياء مناطها ذواتها ،بل أعمالها وصفاتها . أنت لا تحب أحدًا خلا الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ورسوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - ووالديك لذاته ، بل لما يكونُ منه من أعمالٍ ، فإن كانت حسنةً فنعمًّا ، وإلّا فلا. ومن ثَمَّ ليس هنالك مَن نبغضُه من غير المسلمين لذاته، وإنّما لكُفرانه ، فإن ترك كفره تركنا كرهه ، ذلك هو منطقُ العدل والحكمة. ونظم الآية هادٍ إلى ذلك.
وفي تشبيه أعمالهم بالرّماد معنًى يلفتنا ابن القيم (ت:٧٥١هـ) إليْهِ بقولِه :
« وفي تشبيهها بالرماد سرّ بديع. وذلك للتشابه بين أعمالِهم وبين الرماد، في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا. فكانت الأعمالُ الّتي لغير الله تعالى ، وعلى غير مراده : طعمة للنار، وبها تسعّر النَّار على أصحابها.
وينشئ اللهﷻ لهم من أعمالهم الباطلة نارًا وعذابًا، كما ينشئُ لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيمًا ورَوْحًا، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رمادا. فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله تعالى وقود النّار. »

---

[10]) ما من حرفٍ أو حركةٍ في القرآن إلا وله ما يضيفه إلى المعنى المسوق له الكلام، يعرف هذا بعضُ أهلِ العلم، ويجهله كثير، فلا أجعلنّ جهلي بالشيْءِ دليلًا على أنه غير موجود، بل أقول :" لاأجد" ولأقولُ:" لا يوجد" أحكمُ على حالي ، لا على حال ما أقرأ .

وفي هذا إنباءٌ بأنَّ من أكثر من العصيان والكفران فإنما يكثر على نفسِه عذابها، وليس أحمق وأسفخه ممن يجتهد طيلة حياته في جمع ما يتقد عليْهِ نارًا ، فإذا حسب أن في عصيانه أو كفرانه متعةً ولذة لنفسه، فقد سفه إذا حسب أن ما هو عذابٌ مقيما متعةً ولذة. فذلك خلل في العقول والنفوس والقلوب، فما الذي بقي منه حين ذاك نفيعًا؟!!!

والآية لم تكتفِ بتشبه أعمالهم بما يرغبُ عنه، ولا يُفاد منه بل وصفته بما يزيد الإعراب عن ضباع تلك الأعمال، فنعتت الرّماد بأنّه «اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ » أقامك بهذا مقامًا يحقق لك عظيم اليقين بضياع أعمالهم ضياعًا لا أمل في أن يفاد منها بشيءٍ ، قوله :" اشتدّت به الرّيح " وفي قراءة" الرياح" تصويرٌ قوي لما كان من تبعثر ذلك الرمال وفنائه، و استحالة العثور على شيءٍ منه، وكل ذلك يفعم في الفؤاد يقين الضياع لكل ما تعب في صنعته الذين كفروا بربهم، فليس الأصل أن تجتهد في عملك وفي إتقانه فحسب، بل لا بدَّ أن يكون خالصًا لربك تعالى ، وإلا كان وعدمه سواء، بل عدمه خيرٌ منه.

وفي قوله «في يوم عاصفٍ» جعل اليوم عاصفا ،والأصل " في يومٍ عاصف ريحُه"، وأسند الحدث في قوله «عاصف»إلى " اليوم" إعرابًا عن أنّ العصف كان مِن اليوم كله . كان كلُّ ما فيه عاصفٌ بذلك الرَّماد ، وفي ذلك مِن الإبلاغ بضياعِ أعمالِهم ضياعا لا يبقَى معه أملٌ بتّة في أن يفاد منه بشيْءٍ. ثم زاد الأمر إبلاغًا بقوله « لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيد »

فلا يبقَى البتة أملٌ قطُّ في أن يكون مع الكفر ما ينفع في الآخرة ، ولو لم يصدر من الكافر أيّ معصية أخرى غير الكفر بربه تعالى ، ولو لم يترك عملًا نافعًا إلا وأتقنه وبذله للناسِ كلّ الناس مجانًا ، فكلُّ ذلك إنّما يجزى عليه في الدنيا، أمّا الاخرة فليس له منها نصيبٌ بتة. ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُون * أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُون﴾[هود:١٥ -١٦] (١١)

---

(١١) أو يبقى بعد ذلك ما يمكن أن يقول معه بعض من ينتسبون إلى العلم بأن الإيمان بسيدنا محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – ليس شرطا لدخول من آمن في زماننا بنبيّ من الأنبياء الجنة، وأن الجنة ليست حكرًا على من آمن في هذا الزمان بسيّدنا رسُول الله - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلّم - ، يكفي الإيمان بالله واليوم الآخر ،ويتصايحون بأن فلانا النصاري الذي أنار مساجدنا باكتشافه الكهرباء،والذي اخرع المطبعة إطبعت به مصاحفنا ، وفلانا النصراني الذي علاج قلوب المسلمين المريضة ليس معقولا أن يدخل النار، هكذا وكأنَّهم لم يقرؤوا كتاب الله تعالى أو قرؤوا ، وأخذ بعضًا وأعرضوا عن بعض. على أن قساوسة النصارى يجهرون في وسائل إعلامهم المسموع والمقروء أن من لم يؤمن بأن عيسى إله ،ولا يقول بالأب والابن والروح القدس كافر مخلد في النار. و لا يتملقون أحدًا من المسلمين مهما علا شأنه ،وهم يعلمون علم يقين

الرُّماني إذ يصطفي هاتين الصورتين كان موفقًا ، فحسن اختيار الأمثلة والشواهد ومراعاة كمال تحقق صفات الأسلوب الذي هو مناط المدارسة وما يكتنزه المثال والشّاهد من الحقائق العقدية والأحكام الشرعية ، والآداب الأخلاقية أمرٌ بالغ الأهمية ممّا يجعله كالفريضة على أهل العلم أن يمزجوا في مدارسة القضايا البلاغية الأبعاد الإيمانية الآخلاقية، ذلك أن علم البلاغةِ العربي فيما أذهب إليه ليس علما لغويًا صرفًا ، بل هو أيضًا علم إيمانيّ إصْلاحيّ ، فإذا لم يلتفت البلاغي في مدارسته البلاغية لأيّ أسلوب إلى هذا البُعد الإيماني الإصلاحي ويثوره في أفئدة قارئيه ، فإنه يكون غير ناصح لعمله، ولقارئه.

والتشبيه في هذه الآية يهديك إلى أن جودة التشبيه ليست بمحصورة في أن يكون التشبيه منتزعًا من مشبه به نارد لا تألفه العين . نعم، قد يكون ذلك في بعضِ الصور ، لكنه ليس بمطرد، فيكون التشبيه بالغ الفرادة والتميز   والمشبه به مما هو مألوف لا يكاد يغيب عن العين، فما تقرأه في أسفار البلاغيين أنه كلما كان المشبه به ممَّا لا تألفه العين كان أطرف وأظرف ، إنما هو قولٌ صحيح غير أنه ليس عيارًا مطردًا .

الرَّماد التي اشتدت به الريح في يوم عاصف صورة مألوفة جدًا، وبرغم من هذا جاء مشبها به أعمال الذين كفروا فتحقق بهذا التشبيه   ما له سيقت الآية. وهذا هذا جليٌّ لا يَخفى على ذي بصيرة.

******

ومن الباب نفسه يُبين الصورة التشبيهيةَ في قول الله تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِين * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون﴾[الأعراف:١٧٥- ١٧٦]

هذه الآية ممّا يفعم أفئدة المشتغلين بالعلم بكتابِ الله تعالى وسنةِ رسوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – خوفًا من أن يكون لهم منها نصيبٌ، فالانسلاخ ممّا يؤتَى

أن ولي الأمر الأعلى للبلاد لا يؤمن بالأب والابن والروح القدس كما عندهم ، ولا يداهنون في هذا أحدًا، فهم بباطلهم مستمسكون ، وبعض من يتنسب إلى الإسلام وإلى أزهرنا غارقون في هذه المداهنة .وإلى الله العظيم المشتكى .

المرء من العلم ببيان الوحي من أنكى ما يكون على المرءِ، فالمشتغلون بهذا العلم على حذر بالغٍ من ذلك.
والمنسلخ سلوكًا ممّا علِم من بيان الوحي قرآنًا وسنة هو في صراطِ المغضوبِ عليهم.الذين أسوتهم اليهود الملعونون على لسان داوود وعيسَى ابن مريم عَلَيْهما السلام.
صرح الرُّمانيّ بأنَّ هذه الصُّورة - أيضًا - من قبيل إخراج ما لا تقع عليه الحاسّة إلى ما تقع عليه ، فهي وما سبقَها من ضربٍ واحدٍ ، ثم أبانَ عن الصِّفة التي اجتمعت في طرفي التّشبيه على ما بيْنهما من تفاوتٍ في المنزَع ، فالمشبَّه من باب من أوتي علمًا فانسلخ منه، وكان حقه أن يُحسن تلقيه واستثماره ليرفعه الله تعالى به مقامًا عليًا ، ولكنه أخلد إلى هواه، فألقاه في المذلة والهوان والخسة.
والمشبه به حال الكلب ، فهو يلهث في كل حال : حمل عَليْهِ أو لم يحمل عليْهِ.
المنتزع منه كلّ طرف غير سواء في وقوع الحاسة عليْه ، فالمشبه به حاضر في العين – ولاسيما في ديار العربِ –
وهو غير نادر وغير نفيسٍ أيضًا ممّا يبطل دعَوى أن العقل العربي معنِيٌّ بنفاسة ما يشبه به ، هذه دعوى غير حكيمة ، فما جاء مشبها به في الشعر العربي ولا سيما في القرون الأُول، وفي بيان الوحي قرآنا وسنة كثير منه لم يك نادرًا أو نفيسًا ، لكن الصفة المراد لفت البصائر إلى تحققها في المشبه هي بالغة التحقق في هذا المشبه به، فالاعتداد إذن بمقدار تحقق الصّفة في المشبه به والمراد تبيين حضورها في المشبه.
الآية أرتك ما ليس في عينك حاضرة قائمًا : من أوتي الآيات فانسلخ منها ، في هو في عينك قائمًا تراها في صورة الكلب الذي لا يكاد يكف عن اللهثِ .
وفي هذا من الهداية الإبانية الإفهامية ما فيه . وهومسلك عَلِيٌّ من مسالك التربية والتعليم والإقناعِ .
والصّفة التي قامت في الطرفين على تباعدهما منزعًا هي الاجتماع في ترك الطّاعة على وجه من وجوه الخسّة والمهانةِ
بيانه أن "الكلب لا يطيعك في ترك اللهث حملت عليه أو تركته وكذلك الكافر لا يطيع بالإيمان على رفق ولا على عنف "
وهذا فيه من بيان سوء عقل من أوتي الآيات فانسلخ منها ، وأنّه لما لم يخالطه الإيمان صار به كمثل أخس الحيوان" الكلب" وفيه من جهةٍ أخرى إيماء إلى عظيم أثر الإيمان في الإنسان ، وأنه يتسامى به إلى ذروة الشرف والنبيل ، وهو بهذا يجمع في قلب المؤمن أمرين:

الأول سيق له الكلام سوقًا أصليًا وهو خطر أثر الكفر على الإنسان ، وأنّه ممَّا يجعله في مصاف أخسّ الكائنات ، وهذا ما لا يرتضيه من فيه ذرة عقل
والآخر سيق له البيان سوقًا ضمنيًا، وهو الإعراب عن أثر الإيمان في من تمكن منه. وفي هذا من بلاغة الإقناع ما فيه، فالتشبيه في هذه الصورة ذو فاعلية إقناعية بالغة. فهو مازجٌ بين بلاغتين : بلاغة التصوير وبلاغة الإقناع ، جامع بين مخاطبة النفس والعقل معًا. وهذا ممَّا يُعلي شأنه في البيان.([١٢])
وقوله:« وهذا يدل على حكمة الله ﷻ في أنَّه لا يمنع اللطف» كأنه يشير به إلى أن الله تعالى لم يمنع لطفه عن هذا الذي أوتي الآيات فانسلخ منها، بل آتاه الآيات ، وهو سبحانه العليم بأنّه لن ينتفع بها، فلم يمنع عنه إيتاء الآيات ، فبذل له حقه بأن هداه النجدين ،وتركه يختار طريقه ليتحمل مسؤولية اختياره، وما قسره سبحانه على واحد من النجديْن. لعل الرماني يريد هذا .

****

ومن هذا الباب نفسِه : أخراج ما لا تقعُ عَلَيْهِ الحاسة إلى ما تقع عليه يذكر الرماني فقول الله تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ [الرعد:١٤]
هذِه الآيةُ تصور لنا حال أولئك الذين يدعون غير الله تعالى وما يكون ممّا يدعونه من دون اللهِ تعالى ، تصويرًا يحملُ كلَّ ذِي عقلٍ على أن يجاهِد في ألّا يكونَ له نصيب -

---

١٢) يقُول الفخر الرازي في ـاويل الآية في تفسيره: « في تقرير هذا التمثيل وجوه:
الأول: أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَلْهَثُ فَإِنَّمَا يَلْهَثُ مِنْ إِعْيَاءٍ أَوْ عَطَشٍ إِلَّا الْكَلْبَ اللَّاهِثَ فَإِنَّهُ يَلْهَثُ فِي حَالِ الْإِعْيَاءِ، وَفِي حَالِ الرَّاحَةِ، وَفِي حَالِ الْعَطَشِ، وَفِي حَالِ الرِّيِّ، فَكَانَ ذَلِكَ عَادَةً مِنْهُ وَطَبِيعَةً، وَهُوَ مُوَاظِبٌ عَلَيْهِ كعادته الأصلية، وطبيعة الْخَسِيسَةِ، لَا لِأَجْلِ حَاجَةٍ وَضَرُورَةٍ، فَكَذَلِكَ مَنْ آتاه اللَّه العلم والدين أغناه عَنِ التَّعَرُّضِ لِأَوْسَاخِ أَمْوَالِ النَّاسِ، ثُمَّ إِنَّهُ يَمِيلُ إِلَى طَلَبِ الدُّنْيَا، وَيُلْقِي نَفْسَهُ فِيهَا، كَانَتْ حَالُهُ كَحَالِ ذَلِكَ اللَّاهِثِ، حَيْثُ وَاظَبَ عَلَى الْعَمَلِ الْخَسِيسِ، وَالْفِعْلِ الْقَبِيحِ، لِمُجَرَّدِ نَفْسِهِ الْخَبِيثَةِ. وَطَبِيعَتِهِ الْخَسِيسَةِ، لَا لِأَجْلِ الْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ.
وَالثَّانِي: أَنَّ الرَّجُلَ الْعَالِمَ إِذَا تَوَسَّلَ بِعِلْمِهِ إِلَى طَلَبِ الدُّنْيَا، فَذَاكَ إِنَّمَا يَكُونُ لِأَجْلِ أَنَّهُ يُورِدُ عَلَيْهِمْ أَنْوَاعَ عُلُومِهِ وَيُظْهِرُ عِنْدَهُمْ فَضَائِلَ نَفْسِهِ وَمَنَاقِبَهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ عِنْدَ ذِكْرِ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ، وَتَقْرِيرِ تِلْكَ الْعِبَارَاتِ يُدْلِعُ لِسَانَهُ، وَيُخْرِجُهُ لِأَجْلِ مَا تَمَكَّنَ فِي قَلْبِهِ مِنْ حَرَارَةِ الْحِرْصِ وَشِدَّةِ الْعَطَشِ إِلَى الْفَوْزِ بِالدُّنْيَا، فَكَانَتْ حَالَتُهُ شَبِيهَةً بِحَالَةِ ذَلِكَ الْكَلْبِ الَّذِي أَخْرَجَ لِسَانَهُ أَبَدًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَلَا ضَرُورَةٍ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الطَّبِيعَةِ الْخَسِيسَةِ وَالثَّالِثُ: أَنَّ الْكَلْبَ اللَّاهِثَ لَا يَزَالُ لَهْثُهُ الْبَتَّةَ، فَكَذَلِكَ الْإِنْسَانُ الْحَرِيصُ لَا يَزَالُ حِرْصُهُ الْبَتَّةَ.
أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنْ تَحمِلْ عَلَيهِ يَلْهَثْ) أَنَّ هَذَا الْكَلْبَ إِنْ شُدَّ عَلَيْهِ وَهُيِّجَ لَهَثَ وَإِنْ تُرِكَ أَيْضًا لَهَثَ، لِأَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ الْفِعْلَ الْقَبِيحَ طَبِيعَةٌ أَصْلِيَّةٌ لَهُ، فَكَذَلِكَ هَذَا الْحَرِيصُ الضَّالُّ إِنْ وَعَظْتَهُ فَهُوَ ضَالٌّ، وَإِنْ لَمْ تَعِظْهُ فَهُوَ ضال لأجل أن ذلك الضلال والخسارة عادة أصلية وطبيعة ذَاتِيَّةٌ لَهُ. ».

وإن ذقّ - من تلك الحال ، كيما يجرِّد العبد نفسَه لدعوة الله تعالى وحده في جميعِ أمره، فلا يطمع في نوالِ أحدٍ ولا يخشى بأسَ أحد.

أصلُ الأمر في كلّ ما تعاني منه الإنسانية التّعلقُ بمنفعة غير الله تعالى والخوف ما ضرّ غيرِه تعالى .

والقرآن الكريم صرف البيان عن حقيقة أنّه ليس لأحدٍ مع الله تعالى شيءٌ ، فالملك كلّه لله تعالى، وليس من نفعٍ أو غيره لعبدٍ إلا من الله تعالى ، ووصية النَّبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – ابن عمه سيدنا عبد الله بن العباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُما – من أنفع ما يكون استحضاره في فؤاد كل إنسان ليقطع علاقته بالعالمين أجمعين نفعًا وضرًا.(١٣)

وقوله تعالى « وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ » بيانٌ يتضمَّن توكيدًا لمفهوم ما تحمِله جملة القصر التي صدرت بها الآية (لَهُ دعوةُ الحق) فمفهومها وليس لغيره من العالمين شيْء منها ، إنّما لهم دعوة الباطل سلوكًا وأثرًا.

وكان مقتضى الظاهر ألا تعطف عليْها بالواو، لما بينهما من "كمال الاتصال" بيد أن البيان القرآني عدل عن ذلك الذي يقتضيه الظّاهر إلى العطف بالواو إيماءً إلى ما بينهما من تغاير هو مناط القصد ، ومناط التغاير هنا اللفت إلى شأن ما يدعوهم الكافروم وأن لهم دعوة الباطل ، وأنّهم ليس لهم من الحق ومن يعبدهم شرو نقيرٍ. فالعابدُ والمعبود سواء، بل إنّ معبودهم في حقيقته أحقر منهم، وأضعف ، وأذلّ ، ولكنهم بعبادتهم رضوا بأن يجعلوه أشرف منهم عندهم، فخضعوا له، وطمعوا في نفعه، وخافوا من ضرهم ، وهذا يصوّر لك عظيم ما أصاب عقولهم ونفوسهم من أفنٍ وعفنٍ ، فمن ظنَّ أنَّ في تلك العقول والنّفوس ما يمكن أن ينتفع به، فقد ضل ضلالا مبينًا مُبيرًا .

---

١٣) روى الإمام الترمذي في كتاب«صفة القيامة» من جامعه والإمامُ أحمد في مسنده بسندهما عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُما - قَالَ كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَوْمًا فَقَالَ :

« يَا غُلاَمُ إِنِّى أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ ». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

لو أنّ الأمة المسلمة أيقنت بما جاء في هذه الوصاة النبوية ، وصدقت بها، وأحضرتها في جميع أمرها لما وجدت فيها من يخضع لاستعباد أحد له، ولما رضوا بأن يكون أحقرهم، وأضعفهم وأذلهم طاغية عليْهم يستحفهم، ويستنعجهم إمّا طمعًا في نواله، وهو الفقير الحقير، أو خوفًا من بطشه، وهو المتهافت المتداعي في نفسِه وواقعه، لا يملك منأمر نفسِه شيئًا، فضلا عن أن يملك من أمر غيرِهِ

أضعف اليقين بما في هذه الوصاة النبوية، وما في آيات الله تعالى أن ألأمر لله تعالى وحده من قبلُ ومن بعد هو الذي أوجد في هذه الأمة أولئك الطواغيت.

وهذا مسلك بالغ النفع في الإقناع بأن من يعبدون غيرَ الله تعالى لا يستقيم الأمل في أن ينتفع بشيءٍ من عقولهم في شيءٍ من شؤون العقيدة أو الشريعة أو الأخلاق، وأنهم أضل من آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تعالى. ولو نطقت تلك التي يعبدونها من دونِ اللهِ تعالى لتبرأت منهم ، ولأعلنت ضلالهم وحمقهم وسفههم.

هذا التشبيه تشبيه تمثليّ(مركب) ويمكن أن تؤوله على وجهين:

الأول أنه شُبِّهَ الْمُشْرِكِينَ فِي دُعَائِهِمُ عبر الله تعالى من الْأَصْنَامَ وَفي الطمع نفعهم وَعَدَمِ تلك المعبوداتِ لَهُمْ بِشَيْءٍ بِحَالِ امرْءٍ بلغ به الظَّمْآنِ كبلعًا فهو يَبْسُطُ كَفَّيْهِ راجيًا الماء يعلو ليبلغ كفاه اللتيْن يبسطهما إِلَى فَمِهِ لِينحقق له الريّ بهذا الماء ، وليس بمتحقق له ذلك الذي يطلبُ من الماء، فهو ليس بأهلٍ لأن يفعل، فإنما يطلب مما لا يملك أن يفعل ، وهذا من الحمق والسفع وبهذا يكون فعله ورجاؤه باطلاً.

والوجه الآخر: تشبيه استجابة ما يعبده الكافرون لهم فيما يرجونه منهم باستجابة الماء لمن بلغ به العطش فبسط إليه كفيه ليبغ الماء إلى فمه فيروى فإذا الماء لا يشعر برجاء الظمآن كما لا يشعر ما يُعبدُ من دون الله - تعالى - بما يرجوه عابدوهم منهم .

وفي هذا تصوير مقدار مبلغ ما حلّ من الحمق والسّفه في أولئك الكافرون الداعين غير الله تعالى الطامعين في نفع من لا يملك نفعًا ولا ضرا لنفسِه. (١٤)

يقُول الرّمانيّ مبينًا عن الصفة (وجه الشبه) الذي التقى فيه طرفا التشبيه:« وقد اجتمعا في الحاجة إلى نيل المنفعة ، والحسرة بما يفوت من درك الطلبة

وفي ذلك الزّجر عن الدعاء إلا لله - عز وجلّ - الذي يملك النفع والضر ، ولا يضيع عنده مثقال الذر. »

******

(١٤) يندرج في هذا حال أولئك الذين يستغيثون بغير الله تعالى ويستجدونهم وهم موتَى في قبورهم ، والله تعالى وحده العليم بحالهم، والعجبُ أنَّ الله سبحانه وتعالى ما أوصد بابه في وجوههم إن أخلصوا له ، ولكنهم هم صرفوا أنفسهم عن باب الله تعالى، فاستبدلوا بباب الله تعالى أبوابَ من لا يملكون لأنفسِهم ضرًا ولا نفعًا ، زعما منهم أنهم أحقر من أن يتجرؤوا أن يطلبوا من الله تعالى مباشرة حياء منه ، وتلك خديعة الشيطان وقد قالها المشركون من قبل ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّار﴾ [الزُّمَر:٣]

ولو أنك سمعت ما يقُول الشيعة الإمامية الإثنى عشرية الصفوية في شأن سيدنا علي،وشأن سيدنا الحسين - رَضِيَ اللهُ عَنْهُما – لاقشعر جلدك مما بلغوا فيه من السفة،والشرك المقيت ، مما يوجب الحكم بعدم إيمانهم بالله تعالى وحده.فالدعوة إلى التقارب العقدي بينهم وبين أهل السنة دعوة ضالةٌ .

وينتقلُ الرمّاتيّ إلى غرض آخر من أعراضِ التّشبيه في القرآن يتمثل في إخراج ما لم تجر به العادةُ إلى ما جرتْ به.

يقُول في قوله تعالى: ﴿ وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون ﴾[الأعراف:١٧١]

فنتقُ الجبل فوق الرؤوس أمرٌ غريبٌ لم تجرِ به العاد، فلا قبل لهم في تصوره،وتخيله، فكان حسنًاأن يصوره لهم بما هو معتادون عليْه ليكتمل تصورهم لنَتقل الحبلِ(الطور) وقلعه من محله ، وهو الّذي ترسُو به الأرض، وتحفظ من أن تميد بهم ، وهو الذي يضرب به المثل في التمكن والرسو لعلهم يدركون شيئًا من كمال جلالِ الألوهية.

ثُمّ يُبين الرمانيُّ عن الصِّفة التي اجمع فيها الطرفان: « وقد اجتمعا في معنى الارتفاع في الصّورة »

ويُبَيّن الرّمانيّ ما في هذا التشبيه من فائدةٍ بقوله:« وفيه أعظم الآية لمن فكر في مقدورات الله تعالى عند مشاهدته لذلك أو عمله به ليطلب الفوز من قبله ، ونيل المنافع بطاعته» فكان هذا من قبيل الأخذ بأيديهم،وانتزاعهم مما هم غارقون فيه من الغفلة، فإذا ما عاينوا ذلك أدركوا أنهم إزاء هذا الجلال لاشيء، فيهودوا إلى رشدهم، ويوقنوا أنّ عصيانهم وبال عليْهم،وأنهم ليسوا بمعجزين ربهم - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

فالأخبار بذلك النبأ الدال على جلال الألوهية وقدرته - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ،وعزته لتخضع له القلوب ،وتقنت. وإذا ما كان هذا قد كان في أمة سبقت فالذي فعل ذلك معهم - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – مقتدر على أن يفعل ما هو أعظم منه مع غيرهم، وليس أحمق ممن لا يعتبر بما حلّ بغيرِه، فاعتبروا يا أولي الأبصر.

وهذا مطلبٌ عظيمٌ من مطالب القرآن في استحضار العبد له في جميع أمره يقيمه في مقام العبودية الحقّة لله تعالى ممَّا يرفع شأنه عنده. فعظم السّياقاتِ التي أنبأ فيها الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – الامتنان بعظيم فضله على سيّدنا رسُول الله - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلّم – فإنه يعربُ عنه بأنه عبده ، ليهديك إلى أنك إذا ما أردت أن يكون لك نصيب من تلك العطاءات فليكن له نصيبٌ من تلك العبودية لله رب العالمين، فعلى قدر ما يكون فيه من العبودية الصفاء لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – يكون لك من جليل وجمبلا عطاءاته تعالى.

*****

ومن هذا الباب الذي شبه فيه مالا تجري العادة به بما تجري به العادة، قول الله ﷻ:
﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤]
الرّمانيّ لم يعمد إلى القولِ في طرفي التَّشبيه، ولكنه أكتفي بالإشارة إلى الغرضِ من هذا التشبيه، وما يفاد منه ، فأبان أنّه من قبيل إخراج ما لم تجر به العادة إلى ماقد جرت به
والنّظرةُ العَجْلَى قد تحسِبُ أنّ المشبه ليس من هذا فإن حال الدّنيا من حيثُ أقبالها ثم فناؤها أمرٌ لا يكاد يجهله أحدٌ، وأمرٌ جارية به العادة، ففي كلّ حقبة غير مديدة نرى ذلك قائمًا في حياة الأفراد والجماعات والأمم .كم من أناسٍ كانوا في رغد فأصبحوا كأنّ لم يكن شيْءٌ ، وكم من جماعاتٍ ودولٍ وأممٍ كانت شيئًا مذكورًا مغبوطًا على ما هي فيه من رغد ونعيم، وعزة ثم أصبحت لا تملك من ذلك شيئًا ، ممّا يجعلك تذهب إلى أن حال الدنيا على ما ذكر ليس ممّا لم تجر به العادة ، بل هو مما جرت به العادة قديمًا وحديثًا .
أنت إذا نظرت رأيت أن ظاهر الأمر كما ذكرت ، لكنَّك إذا نظرت إلى حضور ذلك في نفوس النّاس واعتباره تبين لك أنّ هذا أمرًا كأنّه لم تجر به الهادة في حياتهم، لعدم اعتبارهم واستحضاره، فجعله مما لا تجري به العادةُ منظور فيه إلى موقف الناس منه ، وليس منظورًا فيه إلى الواقع . فهو من قبيل التنزيل.
وإذا نظرتَ في نظم التشبيه رأيت أنَّ ظاهره تشبيه مفرد بمفرد :تشبيه الحياة الدنيا بماء، ولكنّك إن تبصرت رأيت أنّه تشبيه حالٍ بحال ، لا تشيه شيءٍ مفرد بمفرد، فقوله" مثل الحياة الدنيا" أي قصتها وحالها ، وهذا أمرٌ غير مفرد، بل هو أمر مركب ، لو شئت أن تفصله لامتد بك القول امتداد لا يتسع له المقام زمانًا وجهدًا وعلمًا، فطوى ذلك إجمالًا في قوله "مثل" التي هي بمعنى" قصّة" وفي الإعراب بقوله "الحياة الدّنيا" لفت إلى ما هو شأنها في جميع أمرها ، فهي دنيا أي قريبٌ زوالها، وزوال الأشياء فيها ، فَقَلَّ أن تجد فيها شيئًا يطول بقاؤها من متاعها ، والمرء مفطور على محبة أن تكون الأشياء باقية خالدة لا تووب، أوَ لا ترى أن إبليس إنما أغرى أبانا آدم - عَلَيْهِ السّلامُ – بالمعصية

أكلًا من الشجرة التي نهي عن الاقتراب منها بأن ذكر له أنّها شجرة " الخلد" فكانت كلمة الخلد هي التي فعلت فيه ما أنساه نهي ربه ﷻ فجاء البيان عن هذه الحياة التي نحن فيها بقوله" الدّنيا" في مقابل الإعرابِ عن مقابلها بالحياة الأخرى، وكان مقتضى الظّاهر أن تسمى الحياة الأولى، فيفهم منه أنَّ هنالك حياةً أخرى ، وأنّها الحياة الحيوان أي الحياة الكاملة الباقية التي لا تزول عدل عن الحياة الأولى إلى الحياة الدنيا ؛ ليبقَي الوعي بأنّها قريبة الزوال، فهي في نفسها بالنسبة للحياة الأخرى قريبٌ زوالها، وهي بالنّسبة لكل واحد من الناس فيها قريب الزوال عنها ، فهي إمّا زائلة عن الإنسان، وإمّا الأنسانُ زائلٌ عنها، وزوالُ الإنسان عن النّعمة والمتعة بها كثير، فكم من انسان تحوطه النعم والمتع، وهو غير قادر على أن يتنفع بها ، هِي على طرف الثمام ، لكنه المحروم منها، فكانت بالنسبة له كالزائلة عنه، يراها ولا ينتفع بها، وذلك عليْه أشدُّ وأنكَى، وجلنا سيلقى هذا النوع من الزوال ، كما سيلقى زواله هو عنها.

تلك حقيقةٌ لا تجد أحدًا مهما كان كفرانه وعصيانه عتيًا ينكرُها، هي حقيقة الحقائق التي لم يسلِّم الناس منذ خلق الله تعالى الناس إلى قيامِ السّاعة بشيءٍ مثلها.

جاء التفصيل في المشبه به لما هو أكثر حضورًا في البصرِ والبصيرة ،وجاء من عشر جملٍ

١) "ماء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء"
٢) "اخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ"
٣) "مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ "حَتَّىَ إِذَا
٤) "أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا"
٥) "ازَّيَّنَتْ"
٦) ظَنَّ أَهْلُهَا"
٧) "أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ "
٨) "أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا
٩) "جَعَلْنَاهَا حَصِيدًا"
١٠) "كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ"

بينا المشبه جاء في بعض جملة " مثلُ الحياة الدنيا"

فيفهم نفصيل المشبه في مرآة تفصيل المشبه به، وفي هذا من متعتة التأمل ما ينمتُ المعهنى في النفس فضل تمكنٍ . (١٥)

ويُعني الرماني ببيان ما التقى فيه طرفا التشبيه،وأأثر هذا التشبيه في متدبره:

« وقد اجتمع والمشبه به في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده. »

«وفي ذلك العبرة لمن اعتبر، والموعظة لمن تفكر في أن كل فان حقير وإن طالت مدته وصغير وإن كبر قدره»

ومن البين لصاحب القرآن أنه قد عني بتصريف البيان عن حال الحياة الدنيا، وإنها ليس بأهل لأن يركن إليها عاقل، وأن يرضى بها ـ وفي هذا التصريف من عظيم جمال الربوبية،والرحمانية والرحيمية ما فيه.

ولما كان تبصر هذه الحقيقة وحضورها في الوعي على الرغم من أنها مما يشاهد يحتاج الاعتبار بها ،والإفادة من تصريفِ البيان عنها إلى مزيد من الاعتناء والاتعاون على التفكير فيها، واستخلاصِ العبر منها ختم الآية بقوله :(كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون) الإعراب بقوله «قوم» بالغ الإبانة عن أن الإفادة من هذا التفصيل يحتاج إلى تعاونٍ وإلى اعتناء وقيومية ويقظةٍ وتعمّل، ثم قال (يتفكرون) فجعل الحدث المستحق هو التفكر، وما يترتبُ عليه، وجاء به في فعل مضارع إيماء إلى أهمية استمرار هذا الحدث وتجدّده، بتجدّد الأدوات المحققة له، والخبرات والمهارات التي بها يكون هذا الاستمرار التجددي الذي يترتب عليه ديموية العطاء الرباني من المعاني الإحسانية التي تسقيم حركة الحياة باستطعامها.

---

١٥) يقُولُ عبد القاهر:« المثَل الحقيقي، والتشبيه الذي هو الأوْلَى بأن يسمَّى تمثيلاً لبُعده عن التشبيه الظاهر الصريح، ما تجدُه لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر، حتى إنّ التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقليّاً محضاً، كانت الحاجة إلى الجملة أكثر، ألا ترى إلى نحو قوله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْس ﴾ [يونس: ٤٢]

كيف كثُرت الجُمل فيه؟ حتى إنك تَرَى في هذه الآية عَشْرَ جمل إذا فُصِّلت، وهي وإن كان قد دخل بعضُها في بَعْض حتى كأنها جملةٌ واحدة، فإن ذلك لا يمنعُ من أن تكون صُور الجمل معنا حاصلةً تشير إليها واحدةً واحدةً.

، ثم إنّ الشَبَه مُنْتَزع من مجموعها، من غير أن يمكن فَصْلُ بعضها عن بعض، وإفرادُ شطر من شطر، حتى إنك لو حذفت منها جملةً واحدةً من أيّ موضع كان، أخلَّ ذلك بالمغزى من التشبيه.

ولا ينبغي أن تعدَّ الجُمل في هذا النحو بعَدِّ التشبيهات التي يُضَمّ بعضها إلى بعض، والأغْراض الكثيرة التي كل واحدٍ منها منفردٌ بنفسه، بل بعدّ جُمَلٍ تُنسَق ثانيةٌ منها على أوَّلةٍ، وثالثةٌ على ثانية، وهكذا، فإنّ ما كان من هذا الجنس لم تترتّب فيه الجمل ترتيباً مخصوصاً حتى يجب أن تكون هذه سابقةً وتلك تالية والثالثة بعدهما »

[أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني. قرأه وعلق عليه محمود شاكر. ص:١٠٨-١٠٩ فقرة(١٠٢).

والقرآن استفتح الآية بقوله (إنّما) وختمها بقوله(قومٍ يتفكَّرون) فيحسبِ العَجِلُ أن ثم تباعدًا بين مدلولات (إنما) ومدلولات(قوم يتفكرون) بيد أن التّبصر يهدي إلى أن الاستفتاح بقوله (إنّما) مشيرٌ إلى أن ما هو آت إنما هو أمرٌ من شأنه ألّا يتوقف في التسليم به ؛ لأنه أقربُ إلى الفطرة السليمةِ والعقل الصريح الذي لا يحتاج المرءُ معه إلى توكيد وتأطيد، فمن توقف فإنما توقفه من جهته هو لا من جهة ما يُخاطب به فليبحث في نفسه عما أعاقه عن أنْ يستقبل ذلك النبإ بما يليق.

وختم بقوله (قوم يتفكّرُون) إيماء إلى أنَّه وإن كان خبرًا ممَّا من شأنه أن يستقبل بالقبول والتسليم إلّا أن ذلك لا يعنى أنّه خلاء من الدقائقِ واللطائف والطرائفِ المتجددة بتجدّد التدبر، فكم من أشياء هي قريبة إلى النفس ، وفي مرأى البصر هي مترعة بالفوائد واللطائف والطرائف التي تستغرق جهدًا ووقتا لاستحصاد نزيرٍ منها. فليس كلّ ما قرب منك من الآيات الكونية، وقام في بصرك هو خلاء من الدقائقِ واللطائف والطرائف، بل هو أحوج إلى أن تكون المقدر على تجاوز أثر الإلف المعيق عن التَّبصر.

وتصوير حال الدنيا في بيان الوحي قرآنا وسنة جديرٌ بأن تفرد له مدارسة خاصة يقوم لها وبها جمع من أهل العلم المحتسبين مالكي العزيمة الصادقة القنية، والمهارات والخبرات والأدوات العديدة المتنوعة والصبر الجيم المقيم ، وهذا ضربٌ من العبادة عميم النفع لمن يقوم له وبه.

*****

ويجعلُ الرُّمانيُّ من هذا الباب : إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به قولَ الله تعالى قال عزَّ وجَلّ : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُر * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِر * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِر *فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُر ﴾[القمر :١٨- ٢١]

أكتفى كعادته بأن صرح بنوع التشبيه،وأنه" بيانٌ قد أخرجَ ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به " ثم صرح بما احتمع فيه طرقا التشبيه :" وقد اجتمعا في قلع الريح لهما ، وإهلاكها إياهما" وصرح بما في هذا البيان من فوائد ودلائل :" في ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة "

وهو لم يلتفت إلى نظم صورة التشبيه أهو من قبيل الإفراد أو التقييد أو التركيب،وكأنه يشير بهذا إلى أن الاعتناء بمثل هذا إنما هو وسيلة إلى الغاية التي هو معتن بها: بيان

نوع الإبانة في التشبيه، بيان ما اجتمع فيه الطرفان، ثم ما يعود على المتدبر هذا التشبيه من الفوائد الحُسْنى . وهذا حسن في زمانه.
وتنظر في سياقٍ التشبيه تجد طليعة السياق إنباءٌ بأن عادًا كذبت، ولم يصرح هنا بما كذبته عاد، حثًّا على أن تستحضر ما انبأ به في فاتحة السورة:
﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَر * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِر * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِر * وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَر*حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُر﴾ [القمر:١- ٥]
أوْمأ بطي ذكر ما كذبوا به إلى أنهم كذبوا بكل حقٍ جاءهم ،مما يصور لك عظيم عتوهم في كفرانهم وعصايانهم،وأنهم اتخذوا التكذيب صنعةً واحترافًا ، فهم أحقاء بما سينبؤك به عن عقابهم، وقال(عاد) إيماء إلى أنهم جمهرتهم كذبوا،وأن من آمن به جد قليلٍ في من كابر وعاند وصادم وجالد.،وفي هذا تحذير بالغٌ في اتساع رقعة الفساد والعناد والكفران:
﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَاب﴾ [الأنفال:٢٥]
وأردف ذلك بالاستفهام التهويليّ كيما تعتبر هذه الأمة المحمدية، فلا يكون منها ما كان من أسلافهم ، فيكون لهم ما كان لهم من العقاب المبير، وفي هذا من جمال الربوبية الممزوج بجلال الألوهية وعزتها وسلطانها ما يجعل كل من كان له ذرة من عقل أن يعتبر.
ومن بعد ذلك الاستفهام التهويلي يُبِن عن شيءٍ من هذا العذاب بقوله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :
﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِر* تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِر ﴾
استفتح البيان عن ما حلّ بهم بقولهم (إنا أرسلنا عليْهم) وفي هذا الاصفاء لما يمرأ الفؤاد شعورًا بجلال وعظمة وسلطان المتكلم ما يهديه إلى أن ما هو آتيه من النبإ عن العقاب جد عظيم ، فـ (نا) في(إنا) و(أرسلنا) تستجمع في فؤاد الستبصر المتدبر كل صفات الجلال والقهر والسلطان والعظمة والجبروت ، فيكاد ينخلع من ما يعيه من ذلك. وفي قوله(عليهم) من الإيماء إلى الأحاطة والشمول،وأن ليس أحدًا ممن كذبوا منهم أفلت من ذلك الغذاب المبير. وهذا إنما يصور لك فداحة ما كان منهم، فإن الاحتماع على الكفران والفسون والعصان أمرٌ بالغ الخطر ممَّا يجل عقابه عميما لا يطاق تصوره فضلًا عن

أنْ يطاق تحمله. وفي قوله (ريحًا صرصرًا) بهذا التمثر المصور لهول هذا الريح الذي لا يثبت إمام شيْءٌ، وهي ليست بريح فحسبُ بل هي صرصر أي شديدة قوية ذات صوت لا يطاق سماعه ، وارتفاع شدة الصوت سبيل من سبل الإبادة كالذي كان مع ثمود، وهي أيضاً ريح باردة، فهي جامعة لعوامل الإبادة شدة الحركة، وشدة الصوت، وشدة البرد، وكلّ واحد من هذه الثلاثة كفيلٌ بإبادتهم ، مما يصور لك عظيم ما اجتمعوا عليه من الكفران والعصيان والإفساد في الأرض. وفي هذا من التهديد لنا ما فيه. ولكن أكثر الناسِ لا يعقلون.

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُون * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون﴾ [الرُّوم:٩-١٠]

ولم يكتف البيان عن عقابهم بنعت الريح التي أرسلت عليهم بأنها " صرصر" بل أضاف إليه بيان اليوم الذي حل فيه ذلك العقاب :﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِر) وهو أول أيان العقاب السبعة

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَة * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَة * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَة﴾[الحاقة:٦-٨]

نعت زمان العقاب بأنه نحس وأنه مستمرٌ لا انقطاع فيه، وكان كافيًا قليلٌ من اليوم،ولكن الله ﷻ جعله سبعة مستمرة لا تنقطع إبلاغًا في العقاب، ليتبين للناس عظيم ما اقترفوا، فإنه يجعل العقاب عديلًا لما يقترف، ولذا جاء في القرآن تنوع نعت العذاب فحينا ينعته بأنه شديد، وأنه قريب ، وأنه عظيم، وأنه أليم ، وأنه مهين، وذلك وفقًا لنوع السيئات التي يكون جزاء عليْها، فيمكنك أن تعلم شأن الجريرة من نعت العقوبة عليها.

ويضيف إلى ذلك تصويرًا لفعل الريح الصرير فيهم بقوله تعالى:﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِر ﴾ وفي الإعراب بالاسم الظاهر(الناس) وكان يمكن عربيةً في غير القرآنأن يقال(تنزعهم) فعدل عن ضمير الغيبة إلى الإعرب بالاسم الظاهر(الناس) ليتحضر في وعيك حالهم المضطرب، فكلمة (الناس) اتبؤ عن النوس أي الاضطراب، فهم مضكربون ليسوا على هدًى، تتجاذبهم الأهواء والوساوس،وتتخطفهم الشياطين ففي كل وادٍ من الكفران والعصيان يهيمون .

وفي الإعراب بقوله (تنزع) إنباء بقوة الفعل وبجسامتهم ،وأنهم كانوا في نعمة ورغد ، ولكنمه لم يقابلوا ذلك إلا بالتفنن في الكفران والعصيان، فالنَّزْعُ إنما هو إزالة كاملة لا تبقي علاقة بين المنزوع والمنزوع منه .
ويأتيك التشبيه ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾
انعقدت صزرة التشبيه على بيان فعل الريح بقوم عاد. جعلتهم تلك الريح وقد انتزعتهم نزعًا من الأرض التي كانوا عليها قيامًا يملؤون الأعين بجسامتهم،وتمكنهم منها ، فطرحتهم بل اقتلعتهم من الارض فجعلتهم شبه نخل منقعرأي منزوع من أصوله الغائرة في الأرض، ومن غير الخفي عليك أن النخل متغورة أصوله في الأرض، فهو جد صامد أمام الرياح، فأكثر الشجر يتهاوى، ويبقى النخل صامدًا وإن كان عاليًا، فساق النخل جد قوي كما أنّ جذوره متغورة في الأرضِ ، ولا يقتلعه منها إلا قوةٌ بالغة ، شبههم مطروحين على الأرضِ بإصولِ النّخل التي لم يبق منها إلا أصولها التي كانت في الأرض غائرة ، ونعته الأصول بأنها منقعرة إيماء إلى خوائها ،كأنه مر عليه حقبٌ أفرغته مما كان فيه.
وكل هذا يصور لك قوة فعل هذه الريح فيهم.
وهذا التشبيه يمكنك أن تجعله من التّشبيه المركب ، وأن تجعله من تشبيه المفرد المقيد : تجعله من التشبيه المفرد القيد على مذهبِ الخطيب : شبههم بأعجاز نخل، ثم قيد الأعجاز بنعت، إن جعلت القيد ليس عنصرًا رئيسًا في انتزاع وجه الشبه، فهو تشبيه مفرد بمفرد مقيد، وإن جعلته عنصرًا رئيسًا في انتزاع وجه الشبه ، فالتشبيه مركب.
وتلاميذ مدرسة المتاح على أن التفريق بين المفرد المقيد والمركب يحتاج إلى مزيد تأمل، مما يهدي إلى أن الفارق بينهما اعتباري
والذي إليه أذهبُ أن (منقعر) في هذه الصورة التشبيهية إنما هو عنصر رئيس في الصورة،وليس قيدًا، ولذا هو عندي من التشبيه المركب
والقرآن كثر فيه تقييد المشبه به بنعت هو حزء رئيس من الصورة ، وله اعتبارٌ في انتزاع وجه الشبه المركب ترى هذا في قوله تعالى :
﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيم ﴾ [يس:٣٩]
﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[القمر:٣١]
﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوث * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوش﴾ [القارعة:٤- ٥]

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيل * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيل * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُول﴾ [الفِيل:٣-٥] (١٦)

*****

وجعل الرماني كم هذا الباب إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما قدر جرت به قول الله عزّ وجل: ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَان ﴾[الرحمن:٣٧]

ناصّا على وجه الشبه : «اجتمعا في الحمرة ، وفي لين الجواهر السيالة » ومبرزًا ما يعود على متدبره من الفائدة :« في ذلك الدلالة على عظيم الشأن ونفوذ السلطان ، لتنصرف الهمم بالأمل إلى ما هناك »

يذهبُ الفراء (ت:٢٠٧هـ) في«معاني القرآن»إلى أنّه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – « أراد بالوردة الفَرس، الوردةُ تكون فِي الربيع وردة إلى الصفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء، فإذا كَانَ بعد ذَلِكَ كانت وردة إلى الغُبْرة، فشبه تلوّن السماء بتلون الوردة من الخيل، وشبهت الوردة فِي اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه.»

---

١٦) يقول الدسوقي في حاشية على مختصر السعد:

« فى المركب يكون المقصود بالذات الهيئة والأجزاء المنتزع منها تبع للتوصل بها إليها بخلاف المقيد، فإن أحد الأجزاء مقصود بالذات والباقى بالتبع، وحينئذ فالاحتياج للتأمل إنما هو بالنظر للتراكيب والموادّ المحتوية على التشبيه الواردة على الإنسان، وأن تمييز كون هذا المشبه الذى فيها أو المشبه به من قبيل المفرد المقيد، أو من قبيل المركب يحتاج لتأمل؛ لأن القيود معتبرة فى كل من الأمرين ولا حاكم فى تمييز أحدهما عن الآخر عند الالتباس سوى ذكاء الطبع وصفاء القريحة

والحاصل: أن التفرقة بينهما لا تكون باعتبار التركيب اللفظى لاستوائه فيهما غالبا وإنما تكون باعتبار قصد المتكلم الهيئة بالذات والأجزاء تبع أو باعتبار قصد جزء من الأجزاء والربط بغيره تبع

والحامل على أحد القصدين وجود الحسن فيه دون الآخر فإدراك وجود الحسن المقتضى لأحد الأمرين إنما المحكم فيه الذوق السليم وصفاء القريحة

وهذه التفرقة بينهما باعتبار المتكلم، وأما السامع فيفرق بينهما باعتبار القرائن الدالّة على أن المتكلم قصد الهيئة، أو قصد جزءا مرتبطا بغيره، أو باعتبار أنه لو استعمل ذلك التشبيه لم يطابق ذوقه وطبعه إلا ذلك الوجه المقتضى للتقييد، أو عدمه المقتضى للتركيب

ومن المعلوم أن الأذواق لا تجرى على نسق واحد لعدم انضباطها، فلذا قيل:

إن التفرقة بين المركب والمقيد أحوج شىء إلى التأمل أى: احتياجها للتأمل أشد من احتياج غيرها إليه لدقتها، واحتياجها للتأمل بالنسبة للمتكلم والسامع، أما المتكلم فمن حيث التعبير عنها، وأما السامع فمن حيث إدراكها من كلام البلغاء، وإنما كان التعبير عنها صعبا، لأنها من الذوقيات والتعبير عن الذوقيات صعب وإدراكها من التعبير كذلك- فتأمل.»

(حاشية محمد بن عرفة الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني (ت: ٧٩٢ هـ) تحقيق المحقق: عبد الحميد هنداوي، نشر المكتبة العصرية، بيروت. ج: ٣ص ١٧٨

وراجع معه: كتاب : التشبيه والاستعارة بين الإفراد والتركيب ..أد: محمد أمين الخضري. نشر : مكتبة وهبة.(ط:١) عام ١٤٤١هـ ص:٢٣١-٢٤٦) وكتاب"أساليب البيان والصورة القرآنية. أد محمد إبراهيم شادي. دار والي الإسلامية- المنصورة-(ط:١) عام١٤١٦هـ ص١١٣-١١٨)

وكتاب بيان التشبيه دراسة تاريخية فنية. أد عبد الحميد العيسوي. مطبعة القاهرة الجديدة. ط:١) عام١٤٠٨هـ ص(٢٦١-٢٧٢)

والرُّمانيُّ يجعل مناط المشابهة أمرين" اللون" والنعومة والسيلان" فهي غير متماسكة على غير ما كانت قبل ، وهي ذات لون أحمر ، على غير ما أنتم تشاهدون من الزرقة في مرأى العين.
وفي الإنباء بتقريب ما تكةن عليه السماء يوم القيامة أفعام للأفئدة بجلال الله تعالى وقدرته وعظمته، لعل تلك الأفئدة تهتدي ، فتعمل ما يكون لها يوم القيامة، فنجو من أهواله .
وفي هذا الإنذار من عظيم لطف الله ورحمانيته وجمال ربوبيته ما فيه، مزج الجلال بالجمال ، جعل معالم الجلال أظهر ، تحقيقًا للمهابة التي تثمر الخشية من الله تعالى التي السياق ل نمكينها في الأفئدة..
ومن هذا الباب أيضًا قول الله عزّ وجلّ: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠]
جعله من باب بيلن إخراج"ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به " وصرَّح بالصِّفة الَّتي اجتمع فيها الطَّرفان : « فِي شدّة الإعجابِ ثُمَّ فِي التّغيير بالانقلاب »
صَدرُ الآيةِ يُصوّر الدّنيا على ما هِي فِي وعْي كثيرٍ مِن النَّاس : ليست إلّا لعبًا وَلَهْوًا وَزِينَةً وَتَفَاخُرً بَيْنَهم وَتَكَاثُرًا فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ.
وَهذا على غير ما شرع الله تعالى لهم أن تكون في وعيهم : خلقها لتكون مزرعة للأخرة بأعمارها بالحق والخيرِ والجمال ، فوجعل ما فيها من متاع ونعيم أواة يحقق بها ذلك الأعمار، فاسعمال الإنسان هذه النعم في غير ما خلقت له. استعمالها في اللعب واللهو والتفاخر،واتخذوا الأولاد والأموال للتكاثر لا لإعمار الحياة مزرعةً للأخرة، فلم يفقهوا مراد الله تعالى من خلقها ، ومن تسخيرها لهم ، جعل حسن استثمار ما يفنى سبيلًا إلى تحقيق ما لا يفني ، ولكن أكثر الناس سلكوا عكس ما خلقت له الدنيا،وعكس ما خلقوا له في هذا الحياة .
وجعل طليعة الأية قوله(اعْلَموا أنّما الْحَياةُ الدّنيا) الاستهلال بقوله «اعلموا» إيماءٌ إلى أنّ ما هو آتٍ النبا به بعد إنّما حقه أن يتلقّى تلقيا فتيًا لايكتى فيه بالسمع او الاستماع، بل لا بد من أن تتعامل معه على أنّه ممّا يجبُ أن يكونَ من معلومك الّذي تستحضره ، وتسْتصحبه في أمرِك كله، لأن استحضاره واستطعامه ذو أثر بالغ في استقامة حركة

حياتك إلى مصيرك القريب في الدنيا، ومصبرك في الآخرة، فحيث جاءك قوله تعالى :«اعلموا» فاتخذ له العدة

وجاء قوله«أنما»إيماءً إلى أنَّ قصر الحياة الدّنيا في واقعهم على اللعب واللهو والتفاخر والتكاثر أمرٌ حاضرًا فيهم معروفون به ممارسون له لا يستطاع إنكاره لأنه واقع مشهود.

وفي هذا من التّعريض بهم، والتهديد لهم إذ خالفوا ما شرعه الله تعالى وما أراده منهم وهذه الحياة الدُّنيا كما هي في تصورهم لا كما أراد الله تعالى منهم أن تكون لهم مزرعة للآخرى شبه مثلها بمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا

وهذا المشبه به أمرٌ جارية به الحياة ،وتبصره أعينهم،ولا تستطيع إنكاره بل لا تستطيع عقولهم أن تنساه لتكرره عليهم في كلّ حينٍ فما تمر أيامٌ إلا وكانت حياة واحد منهم الراغدة المفتون بها كمثل غيث ... يبتُ في بُلهنية ويصحو مُعوزًا ثم لا يكون اعتبارٌ.

آية سورة"الحديد" لفتت إلى عقبى الغيث ،وقد صار نباتًا معجِبًا ،وما أعقب ذلك من فناء ، لم تلفت كما كان فيآية سُورة (يونس) إلى نشأة النبات واكتماله ،وما يكون من متعة في مراقبة هذا النمو والاكتمال.

طوى في آية "الحديد" الحديث عن هذه الحقبة من حياة النباتِ ، فكان التشبيه فيها أوجز من التشبيه في آية" يونس" والتشبيهان معًا إيجاز باعتبار ما يتطلبه التنفير ما الاغترار بالدنيا، والرضوان بها،والركون إليها فهو غرض من عظيم أهميته يتطلب مزيدًا من البسط ، فعدل عما يقيتضيه الغرضُ من القول من البَسط إلى ما يقتضيه سياق القول في السورتين إلى "الإيجاز، وكانت آية سورة (يونس) بالنّسبة لآية سورة "الحديد" (إطناب) وآية سورة"الحديد" بالنسبة لآية سورة "يونس" إيجاز" وكل في سياقه هو الأعلى والأمجد والأحمد.

******

ويعمدُ الرّماني إلى الضرب الثّالث من ضروبِ " التشبيه" الأربعةِ :

« إخراج ما لم يعلم بالبديهة إلى ما يعلم » جاعلاً من هذا قولَ اللهِ - عَزَّ وجَلّ:

﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الحديد:٢١]

صرح بنوع بيان التشبيه بأنّه بيانُ إخراج ما لم يكُ معلومًا بالبديهة إلى ما هو معلومٌ بها، أي إخراج ما يعلم بالنظر والتفكر إلى ما لا يحتاج علمه إلى ذلك من شدة وضوحه وحضوره ، بحيثُ لا يغفلُ عنه. فأكسب المُشبَّه الّذي يحتاج علمه إلى نظر وتأمل وتفكر واستحضار إلى ما لا يحتاج العلم به إلى ذلك. ومثل هذا التقريبِ فتيُّ الأثر في بابِ التعليم،وباب القناع.

وصرح الرمانيّ بما يحدثه ذلك الضربِ من التشبيه في نفس متلقيه ومستبصره بأن فيه بيانًا عجيبًا "بما قد تقرّر في النّفس من الأمور ، والتشويق إلى الجنة بحسن الصفة مع مالها من السعة ، وقد اجتمعا في العظم "

حديُث القرآن عن الجنة للمؤمنين الطائعين كثيرٌ في القرآن ممزوج بالتّثقيف النّفسيّ الّذي يجعل السّميع الرّشيد يقبل على استحقاقات دخولها إقبال محبة ، وتشوفٍ ، فمن فطرة الإنسان أنّه إذا ما أمر بفعل شيْءٍ قد يراه ثقيلًا أو نُهي عن فعلِ شيْء يرَى فعله إلى النّفسِ حبيبًا أنّه يحتاج إلى ما ينتزعه ممّا هو مفطورٌ عليه ، ليقبل في جدٍّ وعزمٍ فتي إلى ما يراد منه ، فيأتي الوعد بجزاء يقتلعه ممّا هو آخذ به ، مستمسك بمحاجزته عن الإقبال على ما طلب منه، لذا كثر في كتاب اللهِ تعالى هذا التثقيف الإغرائي ، وبث الرجاء في النوال ، فكثر تصريف حديثه عن الجنة وما فيها، وجعل لكل طائفة من الناس ما يغريها بالعمل لدخول الجنة، فقوم يؤثّر فيهم الحديث عن متع أجسادهم من مأكل ومشرب وملبس ومسكن... وآخرون تأخذهم أمورأخر أجلها رؤية ربهم - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – في الجنة، ثُمَّ صُحبة الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين، فهذه عندهم في المقام الأعلى الذي يطلبون له الجنة.

ولما كانت هذه الآية من سورة " الحديد" تدعو إلى المسابقة إلى جنة أعدت لمن هم في المقام الأول الأدني من مقامات الطاعة والقربِ الأقدس من الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – "مقام الذين أمنوا" وهو أدنى مقامات الذي يدخلون الجنة من غير الأنبياء ، وأعلى مقام منهم مقام " الصديقية" (١٧) لما كان السياق للبيان شأن الجنة لهؤلاء الذي هم في أدنى مقامات القربِ الأقدس جاء تشبيه ما لهم الجنان بتشبيه عرضها بعرض السماء والأرض، فقال: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ جعل المشبه به عرض ساء واحدة

١٧) مقامات القربِ الأقدس من ربنا ﷻثلاث مقامات كلية :«الإيمان، والتقوى، والإحسان» وكلها مندرجة تحت إسلام الوجه لله «الإسلام»،ولكل مقام من هذه الثلاثة الكلية "مبتدأ" و"مختتم"، يعرب عن أهل المبتدأ باسم الموصول وصلته (الذين آمنوا- الذين اتقوا – الذين أحسنوا) ويعرب عن أهل المختتم بـ : " اسم الفاعل" (المؤمنون- المتقون- المحسنون)

وأرض ،وصرخ بأدة التشبيه«الكاف» وعرض جنة الذين آمنوا لا يعلم بالبيهة لأنه لم ير، بينا عرض السماء والأرض يغلم بالبديهة، فقرب إليهم العلم بما يكون لهم من الجنان،وإن كانوا في أدنى مقامات الطاعة، فكيف بجناج ما كان مقام أعلى ،ولذا جاء البيان في سورة«آل عمران» على غير ذلك ، فقال - سُبْحَّانَهُ وَتَعَالَى : ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِين﴾ [آل عمران:١٣٣] قال ﴿ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ لم يقل كغرض السماء، لم يأت بأداة التشبيه ، فذل على المبالغة في التشابه، وجمع السماوات ،وهناك أفرد السماء وجاء بأداة التشبيه، وغي آية" الحديد" قال«سابقوا» وفي آية «آل عمران»قال ﴿سارعوا﴾ والمسارعة أقوى من المسابقة، فالمسابقة قد تكون بيم الأقوياء،وتكون بين الضعفاء، بينا المسارعة لا تكون إلى بيْن الُوياء،وذلك آن آية سورة«آل عمران» تتكلم في جتة أعدت للمتقين،والجنة في آية سورة" الحديد" جنةٌ أعدت للذين آمنوا ، وما بين مقام " الذين آمنوا" ومقام " المتقين" في القربِ الأ قدس من ربنا ﷻ جدّ فسيح فجعل البيان عن جنة المتقين في سورة«آل عمران» من أنها سورة الأصفياء التي جعل رأس المعنى القرآني فيها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون﴾ [آل عمران :٢٠٠]

أمر الذين آمنوا بأربع ليرتقوا إلى المقام الأعلى من المقام الذي هم فيه: مقام " الذين آمنوا" أمرهم بأربع: « اصْبِرُواْ»، «صَابِرُواْ» ،«رَابِطُواْ»، «اتَّقُواْ اللّهَ»

وفي هذا ما يجعلنا أخرصَ ما نكون على أن نحوم حول حمى المتقين لعلنا نقع فيه، ولا نخرج منه إلى ما هوأسمى منه إن شاء الله تعالى.

*****

ومن هذا الباب أيضا قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين﴾[الجمعة:٥]

صرح بأن التشبيه قي هذه الآية« قد أخرج ما لم يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة »

وأنّ الصغة التي قامت في طرفيه إنما هي الاجتماع« في الجهل بما حملا»

وأبان الغرضِ من هذا التشبيه العائد على المشبه إنما هو « العيبُ لطريقة من ضيع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية»

هذه هي الأركان التي يُعنى الرمانيّ التصريح بها في مدارسته التشبيه ، وبيّن أنه لا يلتفت إلى مدارسة بنية صورة "التشبيه" في طرفيه،وهذا الذي لم يلتف إليه ذو أهمية في مدارسة التشبيه ، فأسلوب التشبيه من الأساليب التي يجب مدارسة الخواص التركيبية لصورته ثمّ مدارسة الخواص الدلالية لها،وكيفية هذه الدلالة، ومستواها .

حرًى أن تستحضر أن هذه الآية ذات علاقة وثقى بقول الله تعالى في خاتمة «أم الكتب»:﴿ غَيْرِالْمغضُوبِ عليْهم﴾. هي آية تصور حال الذين حملوا العلم، ولم يعملوا ، وهي لا تختص باليهود، بل تشمل كل من سلك مسْلكهم، إلّا أنّهم أكثر الأمم اتصافًا بهذه المعرّة، فانظر أين أنت من ذلك، وما موقعك من هذا التشبيه.

جاءت هذه الآية التي هي أنكى ما نعت به علماء يهود، ومن سلك صراطهم من الأمم من بعدهم – جاءت في سورة«الجمعة» وهي سورة ذات خصوصية بأمّة سيّدنا رسُول الله - صلّى اللهُ عَليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم - فيوم الجمعة الذي عرض على يهود قبل ، فأبت، وعرض على أمة النصارى فأبت فادخره الله تعالى للأمة المحمدية، فهو هبة ربانيّة لهذه الأمّة ، ممّا يوجبُ عليها أن يكون احتفاؤها بهذا اليوم جِدَّ عظيم ، واحتفاؤها بما جاء من معاني الهدَى الإحسانية في سورة " الجمعة" ولا سيما هذه الآية جدّ عظيم فقهًا واستطعامًا، ونفرة من أن تكون ممن تتحدثُ عنهم هذه الآية.

استفتحت الآية بقوله «مثل» وهذا يهديك إلى أنَّ التشبيه الآتيك إنّما هو تشبيه قصة بقصة، وحال بحال ممّا يحملك إلى أن تتبصر أركان قصة كلٍّ من طرفي التشبيه.

وجاء الإعراب عن المشبه بقوله تعالى«الّذين حمّلوا التوراة» وكأن هذا استهلالٌ بفيضٍ من التعريض بهم، حيث أكرموا بهذا الحمل ، فهم قد حملوا،ولم يحملوا من أنفسهم، وما دام قد حملوا، فمن حملهم سيعينهم إن هم إن قبلوا وأقبلوا، وعرفوا لهذه النّعمة والمكرمة حقها، لكنّ ذلك لم يكن منهم ، ممّا يصورهم لك أنّهم قومٌ لا يُجدِي فيهم الإكرام لخسةٍ متأصلةٍ فيهم، فمَن حسب أنّهم يمكن أن يكونوا محسنين معه إن هو أحسن معاملتهم ، فقد ضل ضلالًا مبينًا، لأنهم لم يفعلوا ذلك مع خالقهم والمقتدر عليهم ، أيفعلونه مع من يرون أنه من دونهم. لايكون

الأعراب بقوله «الذين حُمّلوا التّوراة» دون قولنا «الَّذين هادوا» أو«اليهود» فيه ما اشرت إليه قبل ، وفيه إشارة إلى أنهم لم يهودوا إلى ربهم كما كان يجب أن يكون منهم، سماهم في مواضع أخر " اليهود" إيماء إلى ما يجبُ أن يكون منهم، لكنهم لم يكونوا ؛

ليصورهم لك أنهم قومٌ لا يكونون على النحو الذي يراد لهم أن يكونوا عليه، هم قوم عصاة معاندون ، فالاستكبار مقوم من قومات شخصيتهم، كذلك يصورهم لنا القرآن في عبارة وجيزه تصويرًا كاشفًا محيطًا لمن يستبصر ويتدبر ويستطعم . فإذا رأيت في قومك من يثق بأحدٍ منهم ، فاعلم ان الله تعالى قد ختم على قلبه ، ومن كان كذلك فليس أهلًا لأن تسند إليه تصريف شؤون البلاد والعباد ، فمن لا يتعظ بما به وعظ اللهُ تعالى وهدى ، فلن يُصلحه شيْءٌ، ولن يصلُح هو لشيْءٍ،وإن زعم لنفسه ما زعم.

وجاء المشبه به مما يعرف بالبديهة، لا يحتاج العلم به إلى إعمال عقل ، فهو مما تراه الأبصار والبصائر فمن ذا الّذي لم يرَ حمارًا يحملُ أثقالًا من الأسفار ثم هو لا يوقن أنه لا يستفيد مما فيها سوى الرَّهق والتَّعب ، أمر يدركُه كل ذي ذي عين من بني آدم عليه السلام

وكأن الإتيان بهذا المشبه به ليصور علماء اليهود به يقررأنّ هذه الصفة فيهم لا يحتاج العلم بها إلى تعلم أوإعمال عقل إنما هي تدرك بالبديهة، فمن حسب أنّ أحدًا من اليهود يُمكن أن يفيد من التوراة شيئًا تصلح به أحوالهم ، فقد ضل ضلالًا مبينًا مما يبين لك حال من يهرع إلى مصاحبتهم من المنتسبين إلى الإسلمن وراثة، ومن يعقدون معهم المعاهدات ،والتطبيع على جميع المستويات.

وفي مناظرة الما أعرب به عن المشبه،ومأأعرب به عن المشبه به تدرك عظيم المفارقة بين ما يراد منهم ،وما كان منهم، يراد منهم أن يكونوا أهلًا لما حملوا أكرامًا، وكان منهم ما لا يتوقع بتةُ،ولكنهم قومٌ طبعوا على العنادِ والاستكبار.

وجاء المشبه به مفصلًا. جاء مشتملًا على ثلاثة أشياء:

على حمار بكل ما تستحضره النفس عند سماع ذلك الاسم، وما جعل فيه مثلًا

وعلى محمول : الأسفار: بكل ما تحمله ههذ الكلمة من المعاني الجليلة في مقابل ما تستحضره كلمة" الحمار" من معانٍ، فتكون " المفارقة" وفي الإعراب بكلمة" أسفار: معنى الجلال ووفرة المحتوى وسفوره لمن شاء .

وعلى حمل يستحضر معنى المشقة والرهق

مكونات ثلاثة لاسبيل إلى أن يؤخذ واحد منها لينتزع منه وجه الشبه، لابد من أن يُجمع بعضها إلى بعض لتكون هيئة ،

وهذه الثلاثة المفصلة في المشبه به هي قائمة على الإجمال في المشبه جعل أجمالها فيه لتقرأ في ضوء تفصيلها في المشبه به، ليقرر عندك أن الصورتان: صورة المشبه به

المفصلة،وصورة المشبه سواء في التكوين،وإن اختلفا في الإعرابِ عنهما أجمالًا، وتفصيلًا، ولم يات التفصبل في الطرفين ليحملك على استخلاص تفصيل الإجمال في المشبه من المشبه، فتقترن حال اليهودي بحال الحمار،وحال ما حمّل بحالِ الأسفلر،وحال خسرانه بما كلف حمله بحال حمل الحمار، كل ذلك يمكن المعنى في فؤادك حتى لا يغيب عنك شيءٌ من ذلك ،وإن طال الزمان فتخدع بهم على تطاول الزمان كما أنخدعت ثلة من قومك بهم، فاتخذواهم أصدفاء وأنصارًا ، وخاصموا إخوانهم في الإسلام خدمة لهم على الرغم مما قال القرآن فيهم. ﴿خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيم﴾[البقرة:٧] ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُون﴾[الجاثية:٢٣]

وعلى الرغم من أن التفصيل الذي في المشبه ملحوظ في المشبه ، فليس القصد إلى تشبيه كل جزء في المشبه بما يقابله في المشبه به، بل القصد تشبه محموع ما هو قائم به المشبه بمجموع ماهو قائم به المشبه به،ولاذ كان وجه الشبه في الآية عناء كل بحمل ما هو النفيع المتع ثم لا يناله من ذلك شيءٌ بتى لأمر قائم في الحامل لا في المحمول.

والغرض الذي سيق له بيان حال اليهود وما أسست عليه شخصيتهم من السوء،وأنهم قومٌ لا يُنتفع بهم من جاورهم، فهم لا ينتفعون بما هم فيه ، فمن ظن فيه ما ينفعه فيد ضل ضلالا مبينًا، وفي هذا دعوة إلى منابذة المسلم يهود واتخاذ الحيطة والحذر منهم في كل حالٍ من أحواله.

يقول الإمامُ عبد القاهر في " أسرار البلاغة": « الشبهُ منتزع من أحوال الحمار، وهو أنَّه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم ومستودَعُ ثَمَر العقول، ثم لا يُحسّ بما فيها ولا يشعر بمضمونها، ولا يفرِّق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلم في شيء، ولا من الدَّلالة عليه بسبيل، فليس له مما يحمل حظٌّ سوى أنه يثْقُلُ عليه، ويكُدُّ جنبيه

فهو كما ترَى مُقْتضَى أمورٍ مجموعةٍ، ونتيجةٌ لأشياءَ أُلِّفت وقُرن بعضها إلى بعض، بيانُ ذلك:

أنّه احتيج إلى أن يراعَى من الحمار فعلٌ مخصوص، وهو الحمل،

وأن يكون المحمول شيئاً مخصوصًا، وهو الأسفار التي فيها أماراتٌ تدلّ على العلوم

وأن يُثَلَّثَ ذلك بجهل الحمار ما فيها، حتى يحصل الشبه المقصود

ثم إنه لا يحصلُ من كل واحدٍ من هذه الأمور على الانفراد، ولا يُتصوّر أن يقال إنه تشبيه بعد تشبيه، من غير أن يقف الأول على الثّاني، ويدخل الثاني في الأول، لأن الشَّبه لا يتعلق بالحمل حتى يكون من الحمار، ثم لا يتعلق أيضاً بحَمْلِ الحمار حتى يكون

المحمول الأسفار، ثم لا يتعلق بهذا كله حتى يقترن به جَهْل الحمار بالأسفار المحمولة على ظهره فما لم تجعله كالخيط الممدود، ولم يُمزَج حتى يكون القياسُ قياسَ أشياءَ يُبالغ في مِزاجها حتى تَتَحد وتخرُجَ عن أن تُعرَف صُورةُ كلِّ واحد منها على الانفراد، بل تبطُل صُوَرها المفردةُ التي كانت قبل المِزاج، وتحدُث صورةٌ خاصة غير اللواتي عهِدتَ، وتحصُلُ مَذَاقَةٌ لو فرضتَ حصولها لك في تلك الأشياء من غير امتزاج، فرضتَ ما لا يكون لم يتمَّ المقصود، ولم تحصل النتيجة المطلوبةُ، وهي الذمُّ بالشقاء في شيء يتعلق به غرضٌ جليلٌ وفائدةٌ شريفةٌ، مع حِرمان ذلك الغرض وعدمِ الوصول إلى تلك الفائدة، واستصحاب ما يتضمن المنافع العظيمة والنعم الخطيرة، من غير أن يكون ذلك الاستصحاب سبباً إلى نَيْلِ شيء من تلك المنافع والنِّعم »

يقُول شيخنا ﷺ - :« إدراكُ النُّفوسِ لجهلِ الحمارِ بحمله من المدركات الفطريةِ ؛ لأنَّ الحِمارَ مثلٌ حيٌّ للغباوةِ والغفلةِ ،وهذا المغزَى الذي أبرزه الرمانيُّ لم يلتفتْ إليْه البلاغيون من بعدِه إلا نارا، وإنما يهتمون في هذه الآيةِ بتشكيلِ الصّورةِ وترابطِ أجزائها ، وصيروريتها شيئًا واحدًا ، وهذا مهمٌ وضرويٌّ في التّعرّفِ علَى مغزاها ،ولكن الرمانيّ هنا يلفتُ إلى شيْءٍ آخرَ يتعلّقُ بمستوياتِ الوعيِ بالأشياءِ أو مستوياتِ إدراكها ، فنهاك إدراكٌ بالبداهةِ ،وهناك إدراكٌ بالإلأف والعادةِ ، وهناك إدراك بالحاسة وهكذا وتقريبُ المعاني وإبرازها والكشفِ عنها بتلك الوسائلِ هو مناطُ البحثِ عند الرمانيّ ، وهذا مهمٌّ ، وإدمان النظرِ فيه يفتحُ آفاقًا جديدةً من النّظر المتوسمِ لأحوالِ الإدراكِ وصوره ودرجاته ، وهذه دراسة متراحبةٌ ، وبيان كيفَ أسس أهلُ البيانِ بيانَهم عليْها أكثرَ منها تراحبًا ، ثُمَّ ماذا كان من القرآنِ في هذا الشأن أكثَرَ وَأكثَرَ.»([18])

******

ومن باب إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يُعلم بها قول الله تعالى :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾[الحاقة: ٦-٨]

أبان الرّمانيّ أنّ التشبيه في هذه الآية من بيان إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، وأن الطرفين قد اجتمعا « في خلو الأجساد من الأرواح » وأن الغرض من هذا التشبيه « الاحتقار لكلّ شيء يؤول به الأمر إلى ذلك المآل. »

[18]) ألإعجاز البلاغي لشيخنا. ص:١١٠

وهذا على ما ترى غير الذي قاله في التشبيه الذي في آية سورة" القمر"

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُر * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِر* تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِر *فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُر ﴾ [القمر :١٨- ٢١]

جعله من " إخراجِ ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به " وجعل الصفة المشتركة بين الطرفين " قلع الريح لهما وإهلاكها إياهما" وجعل الغرض من التشبيه الدلالة « على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة »

على الرغم من أن القصة واحدة وأن المشبه هو هو، إلا أنه شبهه بأعجاز النخل في حالتين الأول : الانقعار في سورة " القمر" و" الخواء" في سورة" الحاقة" وذلك وفقًا للغرض المسوق له التشبيه :

في سورة " القمر كان السياق لبيان عظيم جلالِ الألوهية وعظيم قدرته تخويفًا من العقوبة، نظرًا لما استفتحت به سورة " القمر" فجعل مناط المشابهة الانقلاع من ألأرض ،لعظم أحسادهم وتمكنهم وقوتهم، وهذا يحتاج إلى بيان القوة والسلطان، وهذا ما كان في مبدإ الأمر ، وقد ناسب ذلك تذكير الصفة" منقعر" على الرغم من أن النخل مؤنث في المعنى ، مذكر في اللفظ ، فيقال هذا نحل،وهذه نخل فذكر النعت في سورة" القمر" حملًا على المعنى ، وذلك من شَجاعة العربية، وهو الملائم لسياق سورة " القمر"

وأنث النّعت في سورة" الحاقة" لأن الغرض هو تصوير حقارتهم فيما آلوا إليه، وهذا يلائمه التأنيث ، لدلالة " التأنيث " على الضّعف .

الخواء أمرٌ ترتب على الانقلاع، والاقلاع دال على قوتهم في مبدأ الأمر ،والخواء دالٌ على ما آلوا إليه بعد انقلاعهم ،وفي ذلك من التحقير لهم ما فيه ،وفيه تخويفٌ وتهديدٌ لمن يسلك مسلكهم.

******

ومن هذا الباب: إخراج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة قولُ الله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون﴾ [العنكبوت :٤١]

صرح الرمانيّ بأنه تشبيه أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بها ؛ ليجعله حاضرًا في وعيك لعظيم أهمية استحضاره، فالغفلة عنه تفضي إلى بوارٍ.

وصرح بأن الطرفين اجتمعا في « في ضعف المعتمد ووهاء المستند» مما يحقق في فؤاد المتدبر المستبصر « تحذيرًا من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين ، مع الشعور بما فيه التوهين »

وهَنُ بيت العنكبوت ليس في ذاته ، ولكن في من احتمى به، فالمحتمي بغير الله تعالى محتمٍ بما فيه هلاكه . فليحذر الذين يرغبون عن الاحتماء بالله تعالى ولا يحبون أن يأووا إلى كهف الأمة المحمدية : «القرآن» الراغبون في الاحتماء ببيت العنكبوت .

وأنت إذا ما نظرت في واقع أمتك تجد عظم القائم على إدراة شؤون عبادها راغبون عن أن يحتموا بالبيت الحرام ،وما يقتضيه من الاستحقاقات الإيمانية إلى الاحتماء ببيوت أخر إنما هي بيوت العنكبوت ، فهذا محتم بالبيت الأبيض في" واشنطن"وأخاه بالبيت الأحمر في "موسكو"،وآخر بالأصفر في " بكين"، وأخر بالبيت الأزرق في " تل أبيب"،وآخر بالبيت الأسود في" قم" ولا تكاد تجد فيهم من يحتمي بالبيت الحرام في " مكة المكرمة"

ولو أنَّ الناس فقهوا ما في هذه الآية من التَّحذير من الالتجاء إلى غير الله تعالى من الأخطار الجسام لما ولَّى أحدٌ منهم وجهه إلى غير البيت الحرام في جميع شؤون حياته، ولكن أكثر الناس لا يعقلون.

****

ويعمدُ الرماني إلى الضرب الرابع من ضروب" التشبيه" عنه" إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة" وذلك ليكتسب المشبه من المشبه به تلك القوة، فيتمكن العلم بحاله في النفسِ فضلَ تمكنٍ يعودُ بالحسنى عليه باستحضاره،واسْتطعام معاني الهدى الإحسانية المكنوزة فيه.

ويجعل من ذلك قول الله تعالى ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)﴾ [الرحمن]

لما كان القصد إلى بيان جلال الألوهية ،وإلى بيان جمال الربوبية، وعظم عطتءاته، وكان من ذلك بيان عظمة ما يجريه الله تعالى بقوته وعزته من السفن الشوامخ ،وكان ذلك مما لا يتبين أمره لهم من أن من أنزل فيهم القرآن أولا ليسوا أهل بحارٍ وسفن، وكانوا أهل صحراتء وجبال،وكانوا على عرفان بعظمة الجبال الواسي، شبه السفن الجارية في عظمتها بالحمال الأعلام الشوام بالثابة القارة في اليابسة ،وكان ذلك مقررًا للشعور بعزمة وقدرة الله وعزتخه فيأنفسهم، كيما يكون لهم من هذا ما يعينهم إلى أن

يقبلوا على يريد الله تعالى منهم ، أن يعلموا عظيم منة الله تعالى عليم،وفداحة كفرانهم وعصيانهم،وسوء نهجهم في مقاملة عظيم امتنانه عليهم بفداحة نكرانهم ولؤمهم. وزفي هذا كما يقول الرماني « العبرة من جهة القدرة فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها ، وما في ذلك من الانتفاع بها ، وقطع الأقطار البعيدة فيها »
والتشبيه هنا فصل في صفة المشبه: "الجوار- المنشآت في البحر" وطوى ذلك في المشبه لأنه حاضر في أبصارهم وبصائرهم فإخراج ما لا يعلمون قوة الصفة فيه إلى ما يعلمونها فيه. وكان هذا من عظيم رأفته في عظتهم،و تعليمهم ،والأخذ بأيديهم ليقبلوا على ما يريده منهم ، ليكون لهم ما يريونه منه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

*****

يجعلُ من ذلك قول الله تعالى قال عزَّ وجَلَّ: ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّار * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّار *فَبِأَيِّ آلاَء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان} [الرحمن:١٤-١٦]
المشبه" الصلصال" والمشبه به" الفخار" كلٌّ منهما ممَّا يدرك بالحاسة ، وممَّا يعلم بالبديهة، ولكنَّ الصفة التي يُراد الإبانة عن مقدار تحققها في المشبه هي أقوى تحققا في المشبه به منها في المشبه ، فالرّخاوة (عدم التصلب كالحجارة) والخفة في " الفخار" أقوى تحققا، ذلك ان الفخار آتيه ذلك من "النّار" بيان ما هو في "الصلصال" آنيه من حرارة الشمس،وفرقٌ بينهما فكانت الصفة في الفخار أقوى، فأراد البيان أن يكشف عن قوة تحقق الصفة في الصلصال ، فلا يظن أنه على قدر ما عندنا في حياتنا من الصلصال. وكل ذلك متضمن بيان عظيم قدرة الله ﷻ وعظيم ضعف الأنسان المعاند لما يريده الله تعالى منه ، فحق له أن يسعى إلى أن يكون في معية طاعة الله ﷻ فيما يأمره وينهاه.
والإعراب بكلمة "الإنسان" في القرآن" لا يكون إلا في مقام المذمة ؛ لأنّ الكلمة مشتقة من" النسيان" أو كما يقول أبو الحسن الحرالّيّ (ت: ٦٣٨هـ) هي منحوتة من كلمتين: "الأنس"و" النسيان" فهو يأنس بالنّعمة وينسى المنعم، فهي مغربة عن حالة من حالاته ، فالأنسان ليست علما على جنس البشر ، بل هي نعت لحالة من حالاته، مثل كلمة «فؤاد» ليست علما على " القلب" بل هي نعت لحالة من حالات القلب : حالة" التفؤد" ،
وأنس المرء بالنعمة ونسيانه المنعم بها ﷻ ما يقرره القرآن في مواضع عدّة تحذيرًا .

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُون}[يونس:١٢]
﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا﴾[الإسراء:٨٣]
﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّار﴾[الزُّمَر:٨] ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيض﴾[فُصِّلَت:٥١]
الصفة التي يراد الإعلام بتحققها في ما خلق منه الإنسان" الصلصال" إنما هي "الرخاوة والجفاف" وهذه متحققة في: الفخار: المشبه به، فشبه ما خلق منه الإنسان به ، ليحقق في فؤادك العرفان بحال ما خلقت منه، وحين ذاك تدرك ما أنت عليه نت الضعف والعوز ، فلا يتسلّل إلى نفسك العجبُ والشعور بالعزة في جانب خالقك. فتبقى دائما عليما بأنّه لا حولَ لك ولا قوة إلا بخالقك.
الرّماني في هذه الآية لم يلتفت إلى ما يراد لفتنا إليه من أنا ضعفاء لاقوة لنا إلا بخالقنا. فإذا ناظرنا حالنا بحال الجن المخلوق من النار علمنا نعمة الله تعالى علينا ، فكان حق علينا ألّا نكون إنسانًا تأنس بالنعمة وننسى المنعم - جَلَّ جلالُهُ - فلا نشكره عليها.

*****

ومن هذا الباب أيضًا قول الله ﷻ : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُون * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِين * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين * الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُون *يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيم * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيم ﴾ [التوبة:١٧- ٢٢]
التفت الرّماني إلى الاستفهام الصوري في قوله تعالى ﴿ أَجَعَلْتَمْ سَقاية الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ ﴾ وأبان أنه استفهام

يحمل فيضًا من الإنكار للمساواة بين حرمة السقاية والعمارة التي كانت قريش كفيلة بها كحرمة الإيمان بالله ﷻ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالجَهَادَ فِي سَبِيلِ اللّهِ. وقد أكد هذا المعنى الذي تضمنه الاستفهام الصوري يقوله في آخر الآية﴿ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ﴾ فهذه الجملة توكيد للمعنى المضمن في الهمزة في﴿ أجعلتم﴾ ولذا فصلت عنها لما بينهما من كمال الاتصال التوكيدي

فمن البين لكل ذي عقل أنهما عملان لا يتساويان ، فالحرمة في الإيمان والجهاد أقوى لا محالة، فأنكر عليهم التسوية بينهما . فالتسوية بينهما إنما مخرجهما الحق والسفه ، لا يقدم عليه إلى مأفونٌ .

التشبيه هنا ليس لأخراج المشبه في تمكن الصغة فيه محرج تمكنها في المشبه به، بل هي لنفي أن تكون الصفة في المشبه عديلًا لها في المشبه به .

جاء بهذا التشبيه المنفي ليحقق تباعد ما بيْن المشبه والمشبه به في التسوية، ونفي التسوية بين الأشياء في القرآن غير قليلٍ لفتًا إلى خلل في المقايسة، والغفلة عن مناط المفارقة الرئيسة بين الأشياء،والانشغال بظواهر الأشياء .

وفي هذا دعوة إلى إعمال الفؤاد الرشيد في تبين مناطات الاتفاق والافتراق بيْن ألأشياءوكيفيتهما وجهاتهما ومستوياتهما كيما لا ندرج في الأشياء ما ليس منها بسبيل.

وهذا مهم في إصابة التلقي والتفكر ورؤية الأشياء على حقيقتها كيما لا نضل في التعامل معها، فنقيمها مقامًا ليست له، فيترتب على ذلك ما لاتجمد عقباه.

وعظم ما نقع فيه من الضُّر الحسيّ والمعنويِّ آتٍ من أنَّا نقيم الأشياء في غير ما هي له ، ونسند الأشياء إلى غير أهلها، وإسناد الأشياء إلى غير أهلها من تضييع الأمانه، وتضييع الأمانة مفسدة مبيرة ،وأنت إذ تنظر في واقع قومك ترى أن إسناد الأمور إلى غير أهلها صغيرها وكبيرها خاصها وعامها هو الطابع الغالب على مستوى الأفراد والجماعات والمؤسسات الخاصة والعامة على مستوى الإدرات الخارجية والداخلية فما من جهة في حياتنا إلا وانت واجد فيها أن عظم من أسندت لهم الأمور ليسوا لها بأهل ، وفي الحياة غيرهم من هو الأولى بذلك ،والنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - قد حذر من أن يتولى المرء عملا يعلم أنه ليس له بأهل .

روى الروَيَاني بسند حسن في مسنده عن أبي موسى الأشعري - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أنه سيّدنا رسُول الله - صلّى اللهُ عَليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلّم قال: « **مَنْ تَوَلّى عَملًا،وهُو يَعلَم أنّه ليْسَ له بأهلٍ فليتبوأ مقعده من النار**»

وروَى البخاري في كتابِ العلم من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ بَيْنَمَا النَّبِىُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - فِى مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِىٌّ فَقَالَ : مَتَى السَّاعَةُ ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ – - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - يُحَدِّثُ ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ : سَمِعَ مَا قَالَ ، فَكَرِهَ مَا قَالَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ لَمْ يَسْمَعْ ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ ، قَالَ : « أَيْنَ - أُرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ ؟» . قَالَ : هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » . قَالَ : كَيْفَ إِضَاعَتُهَا ؟ قَالَ : « إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » .

******

ظاهر التركيب في الآية أنه نفي مشابهة السقاية والعمارة بمن آمن، والحقيقة إنّما هي نفي أن يكون من يسقي ويعمر المسجد من غير إيمان ومجاهدة في سبيل الله شبيها بمن آمن وجاهد، فهو نفي مشابهة فاعل بفاعل، أو نفي تشبيه فعل بفعل : نفي تشبيه السقاية، والعمارة بالإيمان والجهاد.

جاء في المشبه بالفعل ، وطوى الفاعل، وجاء في المشبه به بالفاعل ، ذلك أن ما طوي في المشبه علم من مقابله في المشبه به، لأن منطق البيان لا يجعل الفعل في منظور الفاعل ، فإن جاء ما ظاهره ذلك فهم ما طوي في ضوء ما صرح بِه .

جعلّ هذا ليكون المتلقي على وعي بما يتلقاه ، لا يقابله بتلقائية تفضي إلى خسران الوعي بأمور عدة. فإذا كانت السقاية والعمارة من حيث هي لا تساوي الإيمان والجاهد ، فبالضرورة أن من سقى وعمر غير مؤمن لا يساوي من آمن ومن جاهد.

وثم قراءة غير متواترة : أجعلتم سُقاة الحاج وعَمرة المسجد الحرام أي أجعل من من يسقون ويعمرون، فالسّقاة جمع ساقٍ ، والعمرة جمع عامر.([١٩])

---

[١٩]) يقُول البقاعي في تفسيره " نظم الدرر" في تأويل الآية:« الآية على قراءة الجماعة من الاحتباك: حذف أولاً المشبه به لدلالة المشبه عليه وثانياً المشبه لدلالة المشبه به عليه،

وأما على رواية نسي بن وردان عن أبي جعفر شاذاً: سقاة وعمرة - بالجمع فلا يحتاج إلى تقدير»

يريد البقاعي أن نظم الآيةهكذا: أجعلتم سقاية الحاجة وعمارة المسجد الحرام كالإيمان بالله واليوم الآخر،وجعلتم من يسفي الحاج ويعمر المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر.

حذف من الأول المشبه به،وحذف من الآخر المشبه.

والبقاعي هنا لم يبين لنا سر هذا الحذف في كل،وكان من عادته بيان السر.

يقول الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) في " الكشاف":«السقاية والعمارة : مصدران ؛ من سقى وعمر، كالصيانة والوقاية، ولا بُد من مضاف محذوف، تقديره: (أَجَعَلْتُمْ) أهل سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ (الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ)، وتصدقه قراءة ابن الزبير وأبى وجزة السعدي -وكان من القراء-: "سُقاة الحاج وعَمرة المسجد الحرام"، والمعنى إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة، وأن يسوى بينهم. وجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر»

ومن هذا قوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَّن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُون﴾[الجاثية:٢١]

في هذا الآية من التسفيه لمن حسب ممن اقترفوا السّيئات أن يجعلهم في حياتهم ومماتهم كمن آمن وعمل الصالحات .

الإعراب عن الفريق الأول بقوله «اجترحوا السيئات» والإعرب عن آلخر بقوله «آمنوا وعملو الصالحات » فاصل في القضية،وبل ‘ن الإهراب في صدر الآية بقول «حسب» دال علىأن ما هو آت بعد إنما هو من الحسبتن الضال،والاعتقاد الباطل، فالقرآن من سننته البياني أنه يعربُ بالفعل «حسب»على الاعتقاد الباطل ، فكان في صياغة الآية قرائن هادية إلى سوء هذا الاعنقاد،ولذا جعل ختامها قوله تعالى« سَاء مَا يَحْكُمُون » وفي ألاية تقرير بأن الذين اجترحوا السيئات لن تكون حياتهم وومماتهم على نحو حسن، وأفعراب بقوله «السيئات» يبين عن أن مغاصيهم سيئة في نفسها وفي أثرها، وهذا كفيل بأن يرغب عنها كل من كان له ذرة من عقل، فكيف بالذي هو ممارس لهما معني بإتقانها كما دل عليه الإعراب قوله" اجترحوا" مبك ما فيه من دلالة على تمكن من الأداء .

ولعل السر أن بدأ بالمقابلة بين بنفي تسوية أعمال السقاية والعمارة والإيمان والجهاد ليقرر أن نفي التسوية مرجه إلى الأعمال نفسها لا إلى من قام بها، ثم عرج على أن هذا يترتب عليه نفي التسوية بين من قام بهذا ومن قاتم بذلك، فالأصل الالتفات إلى الأعمال،ولذا ذكرها في صددر التشبيه ، وصرح بالأعمال في المشبه.

والنظم هنا جمع بين الحذف والتشبيه ،وهو بذلك يعد من بديع التركيبي" الحذف" ومن البديع الدلالي" التشبيه"

وقال الطاهر ابن عاشور:« وَقَدْ دَلَّ ذِكْرُ السِّقَايَةِ وَالْعِمَارَةِ فِي جَانِبِ الْمُشَبَّهِ، وَذِكْرُ مَنْ آمَنَ وَجَاهَدَ فِي جَانِبِ الْمُشَبَّهِ بِهِ، عَلَى أَنَّ الْعَمَلَيْنِ وَمَنْ عَمِلَهُمَا لَا يُسَاوِيَانِ الْعَمَلَيْنِ الْآخَرَيْنِ وَمَنْ عَمِلَهُمَا. فَوَقَعَ احْتِبَاكٌ فِي طَرَفَيِ التَّشْبِيهِ، أَيْ لَا يَسْتَوِي الْعَمَلَانِ مَعَ العملين وَلَا عاملوا هَذَيْنِ بِعَامِلِي ذَيْنِكَ الْعَمَلَيْنِ. وَالتَّقْدِيرُ: أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَجَعَلْتُمْ سَقَّايَةَ الْحَاجِّ وَعُمَّارَ الْمَسْجِدِ كَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَلَمَّا ذُكِرَتِ التَّسْوِيَةُ فِي قَوْلِهِ: لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ أُسْنِدَتْ إِلَى ضَمِيرِ الْعَامِلِينَ، دُونَ الْأَعْمَالِ: لِأَنَّ التَّسْوِيَةَ لَمْ يَشْتَهِرْ فِي الْكَلَامِ تَعْلِيقُهَا بِالْمَعَانِي بَلْ بِالذَّوَاتِ.

وَجُمْلَةُ لَا يَسْتَوُونَ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا: لِبَيَانِ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ مِنْ مَعْنَى الْإِنْكَارِ الَّذِي فِي الِاسْتِفْهَامِ بِقَوْلِهِ: أَجَعَلْتُمْ الْآيَةَ.»٠٠

وهذه ألاية تقيم في قلب كل من كان مؤمنًا صانعًا للصالحات أن محياه ومماته إنما يكون على نحو يلليق بإيمانه وصناعته الصالحات.
والقرآن قد صرف هذه الحقيقة في مواطن عدة من بيانه لعظيم تنكنها في الأفئدة، واستحضارها في ممارسة الحياة،ولا سيما في زماننا هذا حيث يبدو اكثير أن الفسقة قد بسكت لهم النعم ،وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات مضيق عليهم، ولوأنهم أيقنوا أن الله ﷻ قد نفي أن يكون سواء فضلًا عن أن يكونوا في محياهم خيرًا من الذي اجترحوا السيئات لوأنهم أيقنوا ذلك لعلموا أن الذين يجترحون السيئات في شقاء عظيم شديد متجدد لا يتقطع ، وإن بدا ظاهر حالهم للناس أنهم في نعيم، فأقل شقائهم أنهم لا يشعرون بنعمة الأنس بالله تعالى، حرموا هذه النعمة وهم في حياتهم الخاصة التي لا يطلع عليها الناس في شقاء بالغٍ لا يظهرونه . فحيث رأيت فاسقا فاعلم علم يقين أنه في باطنه شقي وإن ملأ الفضاء ضحكًا، ومرحًا ولعبًا ولهوًا . هو في نفسِه وأهله جدّ تعس، وفيه من المشكلات ما لاسبيل إلى حل واحدة منها بكل ما يملك من متع الدنيا . وأنت لن تجد أحدًا ممن تمكن الإيمان في قلبه مبتلى بداء نفسيّ أو عقلي، وعظم من ابتلوا بذلك هم الفسقة الفجرة.
وليكن راسخًا وحاضرا في فؤادك ووعيك قول الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُور﴾[الحج:٣٨]
ولاتحسبن الدفاع عنك مؤمنا منحصرًا في دفع عدوان الكافرين عليك، بل ذلك جانب من الدفاع عنك، ولكنك بإيمانك يدفع عنك الله تعالى كثيرًا من الأضرار والأوبئة، ويدفع عنك تسلط الشياطين عليك، ويدفع عنك بإيمانك كثيرًا من الأدواءالنفسية والعقلية التي لا سبيل إلى التعافي منها...

******

إذا ما كان جوهر البلاغة وظيفيًا إنما هوتمكين المعنى في فؤاد السميع الرشيد وتفعيله فيه في أحسن صورة من اللفظ ، فإن «التشبيه »له منذلك القِدح المعلى، فهو المقدر علىأن يكشف لك حقائق الخفية من الأشياء التي غابت عن وعيك بإقامتها في منظور ما هي بالغُ الجلاء في وعيك، فيريك ما خفي عنك جليًا في مراة مأنت به عليمٌ ، فيستحيل كمثله جلاء وتمكنًا وفاعلية،ولذا كثر هذا الأسلوب في بيان الناس ،وهو بيان الوحي جد

حاضرٍ وجد فاعلٍ ، ذلك أنه الأسلوب ألأقرب إلى رسالة" البيان (القرآن)والتبيين(السنة النبوية)

جاءت مفردة البيان ومشتقاتها في القر'ن كثيرًا جدًا ، لأنها تمثل الغرض الرئيس من سمو بلاغة القرآن الكريم، فإإذ كان سمو بلاغة القرآن يراد بها في شأن من ليس بمؤمن به إقثبات إعجازه،وأنه كلمة الله تعالى التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فإنه سمو بلاغته بالنسبة لمن آمن به بيام مراد الله تعاى منعمده أمرًا ونهسا في مجال العقيدة القويمة،وبيجال ابشريعة الأخلاق. وهذا ما تجد التشبيه فيه حاضرًا فاعلًا

والله ﷻ وصف القرآن بقوله﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِين﴾[آل عمران:١٣٨]

جعله للناس بيانًا أي بيان للحق والباطل،وللخير والشر، وبيانا لما يريده منهم ، ولما لا يريده منهم ، وبيانا لما يكون لمن أطاع، وبيانا لما يكون لمن عصا، وجعله هدًى وموعظة للمتقين ، يزدادون به رقيًّا في مدارج القربِ الأقدسِ من ربهم - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – فيرتقون به من مقام التقوى إلى مقام الإحسان .

وكتبه

مَحمود توفيق محمد سعد القاضي

تم بحمد الله تعالى القول في باب التشبيه من رسالة النكت للرماني ويتلوه إن شاء الله الفول في باب الاستعـارة